

الإمام المحمد بن سعود

مؤسس الدولة السعودية الأولى

دراسات تاريخية



الإمام السعيد بن سعود

مؤسس الدولة السعودية الأولى

دراسات تاريخية



دارة الملك عبدالعزيز
KING ABDULAZIZ FOUNDATION
FOR RESEARCH AND ARCHIVES

© دارة الملك عبدالعزيز، 2024م

الإمام محمد بن سعود: مؤسس الدولة السعودية الأولى (دراسة تاريخية).

دارة الملك عبدالعزيز - ط 1 - الرياض، 1445 هـ

168 ص؛ 18 × 26 سم

رقم الإيداع: 1445/16630

ردمك: 978-603-8291-75-7

حقوق الطبع والنشر محفوظة لدارة الملك عبدالعزيز، ولا
يجوز طبع أي جزء من الكتاب أو نقله على أية هيئة دون
موافقة كتابية من الناشر إلا في حالات الاقتباس المحدودة
بغرض الدراسة مع وجوب ذكر المصدر.

إصدار دارة الملك عبدالعزيز رقم (431)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المَلِكُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ آلِ سَعُودٍ

مؤسس المملكة العربية السعودية



خادم الحرمين الشريفين

الملك سلمان بن عبدالعزيز آل سعود

ملك المملكة العربية السعودية

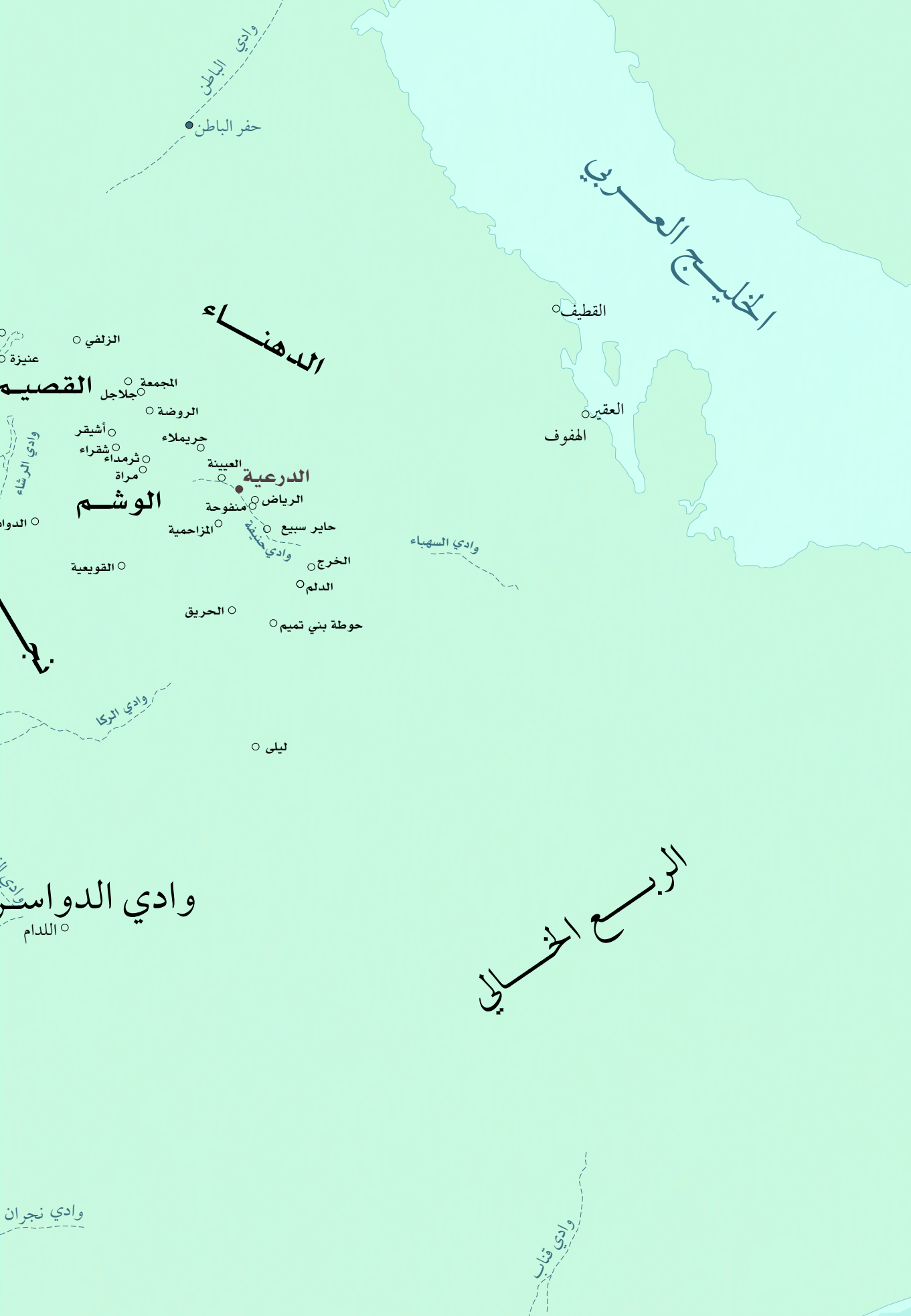


صاحب السمو الملكي الأمير

محمد بن سلمان بن عبدالعزيز آل سعود

ولي العهد رئيس مجلس الوزراء





النفود الكبير

○ بقعاء

○ حائل

○ تيماء

○ تبوك

○ ضبا

○ الوجه

○ أمليج

ينبع

○ بدر

○ رابع

○ جودة

- مكة المكرمة
- الطائف

الليث

القنفذة

○ صیا

أبو عريش ○ جازان

○ نجران

بريد

○
الرس

هي.



مقدمة

كان للإمام محمد بن سعود شخصية بارزة لها دور أساسي في تأسيس الدولة السعودية الأولى وتوحيدها، إذ رأى -رحمه الله- بما حباه الله من حنكة وبعد نظر ما وصلت إليه الأمور من تناحر واختلاف، فقرر توحيد البلاد والعباد تحت راية واحدة وقيادة واحدة، فانطلق إلى تحقيق ذلك في رحلة امتدت عقوداً كثيرة حتى تحقق له ما أراد في عهد أبنائه وأحفاده من بعده.

في عام 1139 هـ / 1729م تولى الإمام محمد بن سعود الحكم؛ مؤسساً دولة جديدة وعهداً جديداً في الدرعية والمنطقة بأسرها، وكان -رحمه الله- ذا نظرة بعيدة وأفق متسع حيث رأى ما عليه البلدات من تناحر واختلاف وفرقة؛ فقرر جمع الناس تحت قيادة واحدة، فضم شطري الدرعية، ثم أمّن طرق الحج والتجارة، ثم انطلق يخاطب البلدات للانضمام إلى الوحدة المباركة.

لقد أمضى الإمام محمد بن سعود حياته مكافحاً ومناضلاً من أجل تحقيق هدفه، وواصل أبنائه وأحفاده من بعده مسيرته، فتحققت أكبر وحدة عاشتها المنطقة بعد عهد النبوة والخلافة الراشدة.

لقد عاش الإنسان السعودي وما زال يقطف ثمار الوحدة ويستظل في ظل الأمن وينعم بالرخاء والنماء، فشرع يبني دولته مدافعاً عنها.

ونحن بعد مضي ثلاثة قرون على ما سطره ذلك الإمام البطل حق له علينا أن نرفع أيدينا داعين له بالرحمة وأن يجزل الله له المثوبة، فبلادنا ولله الحمد تعيش في رخاء وأمن واطمئنان بفضل الله ثم بحكمة قادتها.

ودارة الملك عبدالعزيز إذ تستذكر ذكرى الإمام وما بناه من دولة ذات سيادة، وقائمة على أسس متينة وقوية وموحدة، فيسرها أن تقدم هذا الإصدار الذي يسلط الضوء على جوانب من حياة هذا الإمام كي تتعرف الأجيال على سيرة بطل شجاع وحد بلادهم وأسس مبادئه وقواعده.

آملين أن يكون الإمام محمد بن سعود قدوة حسنة في المهمة والصبر لتحقيق الهدف، وأن يكون أيقونة ذات أهمية في نفوسهم.





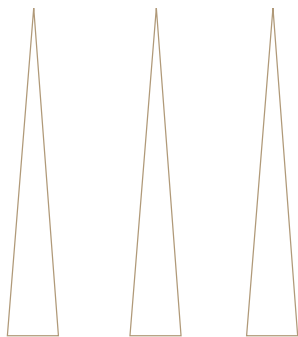
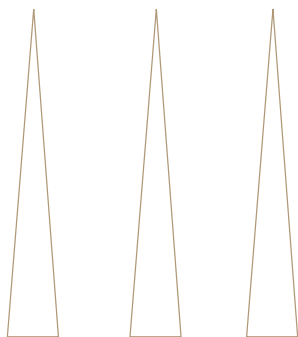
المحتويات

نبذة تاريخية	16
شخصية الإمام محمد بن سعود	20
الإمام محمد بن سعود وجهوده في تأسيس الدولة السعودية	30
قيام الدولة السعودية الأولى عام 1139هـ / 1727م نظرية جديدة في تحقيق تاريخ نجد الحديث والجزيرة العربية	46
ولادة الإمام محمد بن سعود وإمامته وصفحات لم تكتب في تاريخه	64
الإمام محمد بن سعود (الفكرة، والقوة، والنخبة)	80
جودة الحياة في الدولة السعودية الأولى (الدرعية العاصمة نموذجًا)	98
رؤية الإمام محمد بن سعود	106
دور الإمام محمد بن سعود في تأسيس الدولة السعودية	116
إرث الإمام محمد بن سعود	126
جوانب من شخصية الإمام محمد بن سعود وتأسيسه للدولة	138





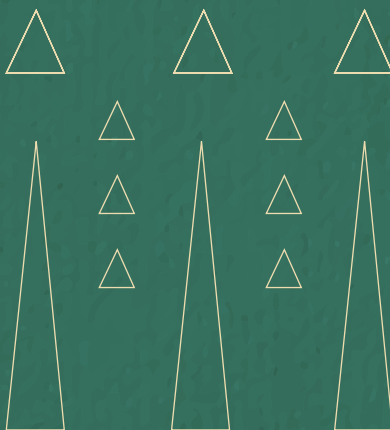
كان محباً للخلاوة والتأمل والتفكير، وهو ما يدل على شخصيته في الاستقراء والتأني والرؤية المستقبلية.





شخصية الإمام محمد بن سعود

أ.د. مها بنت علي آل خشيل





في الدرعية آنذاك، أنه بعد وفاة والده سعود بن محمد توّلى زيد بن مرخان بن وطبان الإمارة عام 1137هـ/ 1725م ولكنّ عمّه مقرن بن محمد خرج عليه وأخذ منه الإمارة، وأراد فيما بعد أن يجتمع يزيد، فخشي زيد أن يكون مقرن يدبر أمراً ضده، فاشترط لحضور الاجتماع أن يكفله الإمام محمد بن سعود، ومقرن بن عبدالله بن مقرن، ويتعهدا بسلامته، فوافقا على ذلك وتعهّدا بحمايته، فلمّا حان الاجتماع، وهمّ مقرن الغدر بزيد، بادر الكفيلان بالدفاع عن زيد، فقتل مقرن، وأعيد زيد إلى الإمارة. وهذه الحادثة تدل على مكانة الإمام محمد بن سعود، وحرصه على استتباب الأوضاع واستقرارها في الدرعية.

◀ الوضع السياسي:

كانت منطقة نجد وسط الجزيرة العربية في مطلع القرن الثاني عشر الهجري تعيش أوضاعاً اجتماعية وسياسية مضطربة ؛ فهي وإن كانت تجمع بين سكانها مشتركات اجتماعية عديدة، تتمثل في اللغة، والدين، وعلاقات النسب والقربى، والعادات والتقاليد، وغيرها، فإنها كانت مفككة سياسياً، ومكوّنة من قبائل رحّل، وإمارات مدن مستقلة، وكانت النزاعات بين قبيلة وأخرى، وبين إمارة وأخرى أمراً شائعاً، ما جعل المنطقة تعيش صراعاً حاداً لا يكاد يهدأ. وانعكست هذه الأوضاع السياسية على المجتمع، وتأثرت مقومات الاقتصاد من زراعة وتجارة بهذه الصراعات ونتائجها، من فقدان الأمن، أو الاعتماد على الممتلكات، وعمقت من الصعوبات المعيشية التي كان الناس يواجهونها نتيجة العوامل الطبيعية الأخرى، كمواسم الجفاف، والأوبئة، وغيرها .

أما الدرعية، فكانت تعد من أهم الحواضر في المنطقة، وتميزت بقوتها، ومنعتها، ووفرة إنتاجها الزراعي، ومع ذلك عانت في بداية القرن الثاني عشر تقلبات سياسية، وصراعاً على السلطة بين أفراد أسرة المردة، الذي لم يتوقف إلا عام 1132هـ/ 1720م بتولي سعود بن محمد بن مقرن الحكم، وحين توفي سعود عام 1137هـ/ 1725م تولى زيد بن مرخان رئاسة الدرعية، وبرزت خلال تلك الفترة شخصية الإمام محمد بن سعود ومكانته بصفته عاملاً مهماً من عوامل استقرار الدرعية، كما سبقت الإشارة.

في ظل هذه الظروف تكوّنت شخصيته، وفي ضوء معاشته لها يفسّر دوره وإصراره على تغيير هذه الأوضاع المضطربة إلى الاستقرار، وضرورة البحث عن رابطة ومصلحة مشتركة تطفئ الصراعات السياسية، وتوحد الجميع تحت لوائها، وتحدث التحول السياسي والاجتماعي والاقتصادي المنشود الذي تنشده المنطقة.

التكوين الديني:

كانت المنطقة بشكل عام تتسم بالالتزام بالدين والتمسك بأحكام الإسلام، وشهدت في تلك الفترة نشاطاً علمياً في مجال العلوم الشرعية، انتشر معها الوعي الديني لدى معظم أفراد المجتمع، وحرص الناس خاصة الميسورين منهم على طلب العلم، ومع ذلك وُجِدَت ممارسات مخالفة لمنهج الإسلام مثل بقية المناطق الأخرى في أنحاء العالم العربي، مثل: التوسّل بغير الله، واعتقاد جلب النفع أو دفع الضر من بعض الأشجار والقبور والتمايم والحجب، وغيرها من البدع، التي تفشّت نتيجة الجهل لدى بعض العوام، الذين كانوا بحاجة إلى التعليم والتوعية الدينية.

وشهدت الدرعية نشاطاً علمياً، وكانت آنذاك مقراً لعدد من طلاب العلم المهتمين بالنقّـه في الدين، ومنهم: الشيخ عبدالله بن عيسى، والشيخ أحمد بن سويلم، والأمير ثيان بن سعود، والأمير مشاري بن سعود، والإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود، وهذه البيئة بلا شك أثر فيها الإمام محمد بن سعود الذي عُرف بالتدين، فأدرك حاجة الدولة إلى تشجيع الحركة العلمية بتوفير بيئة تستقطب العلماء. ولذلك أيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب في دعوته الإصلاحية عندما قدم إلى الدرعية عاصمة الدولة.

وفي ظل بيئة الدرعية العلمية، والحماية التي وفّرها الإمام محمد بن سعود انتشر العلم الشرعي الصحيح وازداد التعليم.

4. صفاته الشخصية:

اشتهر الإمام محمد بن سعود بسيرته الحسنة، وسمعته الطيبة، وحسن معاملته، التي ميّزته عن الأمراء المعاصرين له، وظهرت سمات شخصيته من خلال مواقف عديدة شهدتها حياته. ومن أبرز صفاته الوفاء بالعهد، واشتهر بذلك بين معاصريه، ويبرز تعهده بسلامة زيد بن مرخان أمام مقرن بن محمد بن مقرن، ووفاءه بكلمته، ليؤكد ما اتسم به من وفاء، وأن هذه الصفة كانت معروفة عنه، وجعلته جديرًا بثقة من حوله؛ بدليل أن زيداً اختاره من بين وجهاء الدرعية ليضمن سلامته. وهذه الصفة التي اشتهر بها الإمام محمد بن سعود كانت بلا شك من ضمن الأسباب التي شجعت الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الاستقرار في الدرعية، تحت ظل أميرها الذي تعهد بحمايته، إلى جانب القوة التي عرفت بها الدرعية تحت حكمه، ووجود دولة متمكنة. كما تميز الإمام محمد بن سعود بالإيثار، والتضحية بمصلحته الشخصية في سبيل المصلحة العامة، فبعد وفاة والده، ومع جدارته لتولي رئاسة الدرعية، وثقله ومكانته الاجتماعية، وقوته التي تؤهله لهذا الدور، فإنه قبل بتولي زيد بن مرخان ثم مقرن بن محمد بن مقرن، ولم ينازعهما، بل عمل لدعمهما، ووقف لحماية زيد، مع أن مقرن هو عمه، وكان موقفه يدل على حرصه على تحقيق الاستقرار والسلم في الدرعية. وبعد توليه إمارة الدرعية وتأسيس الدولة السعودية الأولى، وتبنيه مشروع الوحدة الوطنية، تحمّل الكثير في سبيل المضي في تحقيقها، برغم ما واجهه من

أما الشجاعة فتظهرها الأحداث الكثيرة التي شهدناها، سواء قبل توليه الحكم أو بعده؛ فقد تولى قيادة القوات، ومواجهة المواقف الصعبة طوال حياته، وكشفت هذه المواقف عن صفات أخرى من شخصيته مثل: الصبر والثبات، الذي قابل به الصراع مع المدن النجدية المحيطة به، من كل جهة، وثباته في المواجهة مع القوى الخارجية التي استهدفت مناطق سيادته، مثل: هجوم زعيم بني خالد عريعر بن دجين على الدرعية عام 1172هـ/1760م، وهجوم رئيس نجران حسن بن هبة الله المكرمي على نجد عام 1178هـ/1764م، وما تلاه من هجوم زعيم بني خالد على الدرعية في العام نفسه.

عُرف الإمام محمد بن سعود كذلك بالتدين، وكثرة العبادة، والزهد في الدنيا، ويدل استقباله للشيخ محمد بن عبد الوهاب وتأييده على قناعاته الشخصية بضرورة تصحيح العقيدة واستعادة نهج السلف الصالح . وخلال فترة حكمه أظهر عناية كبيرة بالتعليم، ورعاية طلاب العلم، وحرص على نشر العلم الشرعي، وتهيئة الأسباب التي تضمن توعية الناس بأسس الدين الصحيح، فبنيت المساجد ورتبت فيها الدروس، سواء الدروس للعامة، أو الدروس المتخصصة لطلاب العلم، وأصبحت الدرعية في عهده وجهة لطلاب العلم الذين توافدوا إليها من البلدات المجاورة. كما اشتهر بكرمه، وسخائه، ومسارعته لتقديم العون للمحتاجين، وتفقد أحوالهم.

كانت شخصية الإمام محمد بن سعود ذات حضور اجتماعي مؤثر، نالت تقدير وثقة معاصريه ومواطنيه. ومن الأمثلة التي توضح هذا أنه ما إن عاد من العينة عام 1139هـ/1727م بعد الحادثة التي قتل فيها زيد بن مرخان رئيس الدرعية حتى التفت الناس حوله وبايعوه، واستقرار الدولة السعودية في عهده وازدهارها وقوّتها تدل جميعها على أنه اتبع سياسة داخلية حكيمة، واستطاع تأليف القلوب حوله بما يتحلى به من إنسانية، وبذلك تكاملت شخصيته الاجتماعية مع شخصيته السياسية.

وبالنسبة لسياسته الخارجية، فعرف عنه أنه كان على علاقات طيبة في أغلب الأوقات مع المدن المجاورة للدعية على الرغم من التنافس والصدامات المتكررة بين المدن، فكانت علاقاته مع العيينة ودية، وتوثقت العلاقات بزواج ابنه عبدالعزيز من الجوهرة ابنة عثمان بن معمر أمير العيينة (1142-1163هـ/1729-1750م)، أما علاقاته مع الرياض، فكان أمير الرياض دھام بن دواس مديناً للإمام محمد بن سعود، ففي عام 1151هـ/1738م حدث نزاع داخل الرياض هدد حكم دھام، فأرسل إلى الإمام محمد بن سعود يستنجد به، فأمدّه بقوة على رأسها أخوه مشاري بن سعود، عسكرت في الرياض عدة أشهر، وحفظت الأمن، وحافظت على أرواح الناس وأنهت المشكلات.

ثم دخلت علاقاته مع المناطق المحيطة مرحلة جديدة في عام 1159هـ/1746م، بانطلاقه نحو توحيد المناطق المحيطة في دولة مركزية في ظل الشريعة الإسلامية والعقيدة الصحيحة، وبدأت

المصادر والمراجع:

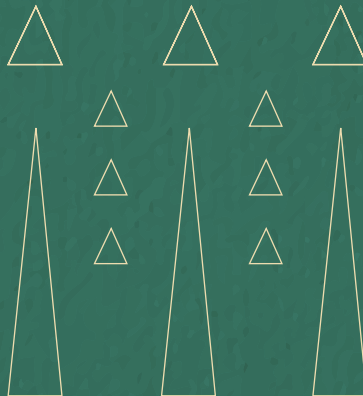
- آل سعود، فيصل بن مشعل بن سعود بن عبدالعزيز. رسائل أئمة دعوة التوحيد. الرياض: المؤلف، 1422هـ/2001م.
- ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد في تاريخ نجد. تحقيق عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ. الرياض: دار الملك عبدالعزيز، 1402هـ/1982م.
- ابن خميس، عبدالله بن محمد. الدرعية. الرياض: دن، 1402هـ/1982م.
- _____ معجم اليمامة. الرياض: المؤلف، 1400هـ/1980م.
- ابن عيسى، إبراهيم بن صالح. تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد. الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، 1419هـ/1999م.
- ابن غنام، حسين بن أبي بكر بن غنام. تاريخ ابن غنام. تحقيق سليمان بن صالح الخراشي. (الرياض: دار التوثيق، 1431هـ/2010م.
- الأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية. الرياض: دار الملك عبدالعزيز، 1421هـ/2000م.
- البدراني، فائز بن موسى وابن عساكر، راشد بن محمد. نسب آل سعود. الرياض: دار الملك عبدالعزيز، 1433هـ.
- البسام، عبدالله بن عبدالرحمن. علماء نجد خلال ثمانية قرون، ج1. الرياض: دار العاصمة، 1419هـ.
- الجاسر، حمد. "المرأة في حياة إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب." ضمن: بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ج1، 164-188. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1403هـ/1983م.
- الدامخ، فهد عبدالعزيز. "تاريخ منطقة الرياض منذ قيام إمارة الدرعية حتى قيام الدولة السعودية الأولى (850-1157هـ/1446-1744م)." ضمن: منطقة الرياض دراسة تاريخية وجغرافية واجتماعية، ج3، 73-93. الرياض: إمارة منطقة الرياض، 1419هـ.
- الرويشد، عبدالرحمن بن سليمان. "آثار الدرعية نشأة بيت وتاريخ دولة." مجلة الدرعية مج1، ع3، 49-50 (ربيع الأول-جمادى الآخرة 1431هـ/مارس-يونيو 2010): 47-60.
- _____ الجداول الأسرية لسلالات العائلة المالكة السعودية. الرياض: دار الشبل، 1431هـ/2012م.
- الريكي، حسن بن جمال. لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب. تحقيق وتعليق عبدالله الصالح الغيثمين. الرياض: دار الملك عبدالعزيز، 1426هـ/2005م.
- السماري، فهد بن عبدالله. أهل العوجا. الرياض: دار الملك عبدالعزيز، 1431هـ.
- العجلاني، منير. تاريخ البلاد العربية السعودية، ج1، ق1أ. الرياض: دار الشبل، 1413هـ/1993م.
- _____ تاريخ البلاد العربية السعودية، ج5. الرياض: دار الشبل، 1410هـ/1990م.
- الغريني، عبدالرحمن بن علي. "بدء الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته وانتقاله من حريملاء إلى العيينة ثم الدرعية دراسة تاريخية مقارنة." مجلة العلوم العربية والإنسانية: جامعة القصيم مج10، ع3 (رجب 1438هـ/مارس 2017م): 1647-1710م.
- _____ الإمام محمد بن سعود وجهوده في تأسيس الدولة السعودية الأولى. الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، 1419هـ/1999م.
- العوسجي، محمد بن حمد بن عباد. تاريخ ابن عباد. تحقيق عبدالله بن يوسف الشبل. الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، 1419هـ/1999م.
- العيسى، مي عبدالعزيز. الحياة العلمية في نجد منذ قيام دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحتى نهاية الدولة السعودية الأولى. الرياض: دم، 1418هـ.
- الفاخري، محمد بن عمر. تاريخ الفاخري. الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، 1419هـ/1999م.
- فيسي، وليام. الدرعية والدولة السعودية الأولى. الرياض: مؤسسة التراث، 1999م.
- فيلبي، هاري سانت جون. الذكري العربية للمملكة العربية السعودية. تعريب عباس سيد أحمد. مراجعة عبدالله المنيف. الرياض: مكتبة العبيكان، 1424هـ/2003م.
- مانجان، فيليكس. تاريخ الدولة السعودية الأولى وحملات محمد علي على الجزيرة العربية. ترجمة وتعليق محمد خير محمود البقاعي. الرياض: دار الملك عبدالعزيز، 1424هـ.
- المطوع، عبدالله بن محمد. "التحولات السياسية والاجتماعية في الدرعية (850-1157هـ/1446-1744م)." مجلة جامعة الملك سعود- الآداب مج16، ع2 (1424هـ/2004م): 409-441.
- _____ مجتمع الدرعية في عهد الدولة السعودية الأولى. الرياض: الجمعية التاريخية السعودية، 1424هـ/2003م.



الإمام محمد بن سعود وجهوده في تأسيس الدولة السعودية

1139-1159هـ / 1727-1746م

أ.د. خليفة بن عبدالرحمن المسعود







لقد كان تأسيس الدرعية في منتصف القرن التاسع الهجري بارقة أمل في لمّ الشتات وجمع الكلمة في شبه الجزيرة العربية وتوحيد أرجائها في كيان واحد، وظهور أول وحدة سياسية توحد مناطقها وتجمع شتاتها المفقود تدرجاً بانتهاء عهد الدولة النبوية والخلافة الراشدة ثم العهد الأموي والعباسي وما تلا ذلك من ضعف وغياب الاستقرار والأمن.

ومنذ القرن الثاني عشر الهجري /الثامن عشر الميلادي حملت أسرة آل سعود على عاتقها مهمة تأسيس كيان تتحقق من خلاله وحدة الوطن، حيث انطلق العمل لتحقيق ذلك الهدف منذ أن وضعت لبنة البناء لتأسيس الدولة السعودية الأولى عام 1139هـ/1727م على يد الإمام محمد بن سعود لتصبح الدرعية عاصمة الدولة ومنطلق حملات التوحيد، لتتخذ تلك الدولة نهجاً راسخاً متوارثاً عبر الأجيال من خلال الدولة السعودية الثانية التي تأسست عام 1240هـ/1824م حتى عهد الدولة السعودية الحديثة (المملكة العربية السعودية) التي رفع رايتها مؤسس المملكة العربية السعودية وموحد مناطقها الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل بن تركي آل سعود- طيب الله ثراه- منذ استعادته الرياض عام 1319هـ/1902م حتى أعلن توحيد البلاد عام 1351هـ/1932م، حيث تمكنت هذه الدولة خلال ثلاث حقبة تاريخية من تأسيس نظام حكم أصيل أسهم في تحقيق الازدهار والعدل والنماء، وأثمر مجموعة من التغييرات الإيجابية لبناء الإنسان والمكان في شبه الجزيرة العربية. امتد حكم محمد بن سعود نحو 40 سنة من 1139هـ/1727م حتى 1179هـ/1765م، حيث كان يركز على وسط الجزيرة العربية في بعض النفوذ على البلدان الصغيرة والقبائل القريبة منها. ثم انتقل إلى بناء الدولة ووضع أسس الحكم فيها ونظامها الإداري والعسكري وبناء علاقاتها الخارجية.

يُنسب آل سعود إلى جدهم سعود بن محمد بن مقرن، ويعود نسبهم إلى المردة من قبيلة بني حنيفة البكرية الوائلية، أبناء حنيفة بن لُجَيْم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هُبَب بن أَفْصَى بن دُعْمَي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان .

ويتمون مكاناً إلى وادي العرض بمنطقة اليمامة، المعروف بوادي حنيفة موطن الجد الأول للقبيلة الذي قدم إلى المنطقة، وهو عبيد بن ثعلبة حفيد الجد حنيفة بن لُجَيْم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل، عُرِفَ به، وعُرِفَ بها منذ عصور ما قبل الإسلام؛ حتى سُمي الوادي باسم وادي حنيفة. ما يدل على عراقية حكم آل سعود وامتداد جذوره إلى فترة ضاربة في التاريخ في قلب شبه الجزيرة العربية.

◀ نشأة إمارة الدرعية:

نتيجة لتدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية في اليمامة حدثت هجرات من وسط الجزيرة العربية إلى شرقها، واستمر وجودهم في تلك المنطقة حتى منتصف القرن التاسع الهجري تقريباً/الخامس عشر الميلادي، حين استجدت ظروف أدت إلى عودتهم إلى منبعهم الأصلي، فكان زعيم الأسرة في شرق الجزيرة العربية آنذاك مانع بن ربيعة المريدي يقطن بمكن في شرق الجزيرة العربية يقال له الدرعية (الأولى) التي أسسها أسلافه بعد انتقالهم من وسط الجزيرة العربية، فتمت مراسلات بينه وبين قريبه ابن درع في منطقة حجر اليمامة نتج عنها انتقال الأمير مانع المريدي وأفراد العشيرة إلى نجد في عام 850 هـ/1446م، ومن المرجح أن مما دعا مانعاً للانتقال إلى نجد هو العودة إلى موطن الأسلاف، وكان مما دعا ابن درع لاستدعائه ومنحه أرضاً الرغبة بالتقوي به وبأتباعه، والعمل لإعادة الصلات الأسرية من جديد بعد انقطاع طويل.

وعلى أي حال فقد منح ابن درع مانعاً موضعى الملييد وغصيبة ليؤسس عليهما إمارته؛ حيث أصبحتا فيما بعد نواة لتأسيس الدولة السعودية الأولى، وسميت بالدرعية (الثانية) التي صارت إمارة فيما بعد، وتوارثها أبناء الأمير مانع المريدي وأحفاده من بعده .

الإمام محمد بن سعود وجهوده في تأسيس الدولة السعودية الأولى:

◀ النسب والمولد:

هو محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع بن ربيعة المريدي الحنفي العدناني ولد في الدرعية في نحو عام 1090هـ/1679م، وله من الأولاد فيصل، وسعود، وعبد العزيز (الإمام)، وعبد الله، وعلي، ومرخان، وهيا، وطرفة. واشتهرت من زوجاته موزي بنت سلطان بن أبي وهطان من آل كثير، ويبدو أن صلة قبيلة آل كثير وموالاتها لآل مقرن كانت سبباً في اختيار الأمير سعود بن محمد بن مقرن موزي زوجة لابنه محمد، وقد عرفت موزي برجاحة العقل والدين؛ وهذا ما جعل رأيها محل احترام وقبول لدى زوجها الإمام محمد بن سعود.

◀ صفاته الشخصية:

امتلك الإمام محمد بن سعود من الصفات الشخصية ما جعله مؤهلاً لتولي القيادة منذ وقت مبكر؛ فقد عرف بحسن السيرة والوفاء وحسن المعاملة، وظهرت تلك الصفات في شخصيته قبل توليه الإمارة، بل كان من أبرز الشخصيات في الدرعية في هذا الجانب، ويشير ابن غنام لذلك بقوله: "بحسن السيرة معروفاً، وبالوفاء وحسن المعاملة موصوفاً مشهوراً بذلك دون من هنالك". وعلى الرغم مما تشير إليه المصادر من تراجع ديني في المجتمع خلال الفترة التي سبقت

ظهور الدعوة الإصلاحية فإن الإمام محمد بن سعود اتصف بالتدين منذ وقت مبكر سابق للدعوة ؛ وتشير المصادر إلى ما تميز به الإمام محمد من كثرة العبادة وعمل الخيرات وأنه "حسن السيرة والسريرة"، وكان تدينه على الدين السليم والفطرة السوية التي عرف بها أهل البلاد البعيدة عن مناطق انتشار الممارسات الضالة، وقد عرف عنه كره أصحاب هذه الممارسات وعدم ارتياحه من ذبوع صيتهم.

أما الكرم فقد كان أحد خصاله البارزة؛ وقد بلغ به السخاء أنه كان يتكفل بسداد ديون الناس ليس من الدرعية فحسب؛ بل من بلدان نجد المختلفة، وبمجرد أن يتحقق من صدق صاحب الطلب يقوم بسداده مهما كانت قيمته، ومن أمثلة كرمه أن تاجراً يدعى ناصر بن إبراهيم قدم إليه في الدرعية فشكا له إفلاسه وتحمله ديناً بما يقارب أربعة آلاف ذهباً. وحين شعر باللوم في عيون من حوله بسبب دفعه هذا المبلغ الكبير لرجل لا يعرفه كان جوابه مليئاً بالحكمة ومكارم الأخلاق حيث قال: "يا أولادي، الدنيا إنما جعلت لكرامة بني آدم، فالسخيّ منهم ذو الشرف إذا ذل ينبغي إعانته بما يمكن لئلا يزدريه السفل، وناصر بن إبراهيم قد سمعتم به إنه رجل كان ذا مال وشرف وقد اضطره الزمان، فعلى الناس الكرام إبداء الخير لمثله". وتدل هذه العبارة على إدراك الإمام محمد بن سعود لمقامات الرجال أهل الخير والفضل وإنزالهم منازلهم، وعدم كسر نفوس ذوي المقامات حتى لا يكونوا تحت نظرة ازدراء أراذل الناس، وحفظاً لمكانتهم في المجتمع ما يشجع الآخرين على التزام نهجهم السوي.

ومن الصفات التي تميز بها الإمام محمد بن سعود وظهرت عليه قبل توليه الإمارة، الشجاعة وسداد الرأي وحسن القيادة والوفاء بالعهد، حيث يتبين من استقراء الأحداث المبكرة التي شارك فيها امتلاكه لهذه الصفات، ولا سيما في الأحداث المتعلقة بالنزاع مع العيينة خلال إمارة زيد بن مرخان وبقية الأعمال التي قام بها خلال تلك المرحلة كما سيأتي.

﴿ سياسته الداخلية وإصلاحاته الاجتماعية: ﴾

يعد الإمام محمد بن سعود مؤسس الدولة السعودية الأولى، وكان له الدور الكبير في بناء أول وحدة سياسية في المنطقة حيث شهد عهده بداية توحيد بلدان نجد بدءاً من العيينة وحریملاء ومنفوحة ثم شقراء والقويعة والمحمل وثادق والقصب والفرعة وغيرها، كما أصبحت الدرعية في عهده المبكر قادرة على حماية نجد من أي خطر خارجي منذ نجاحها بالتصدي لهجوم متكرر من حكام الأحساء، وحينما توفي الإمام محمد بن سعود في ربيع الأول سنة 1179هـ/مارس 1765م كانت الدولة قد أظهرت تفوقها على خصومها في نجد الذين اتخذوا موقف الدفاع، خاصة دهام بن دواس أمير الرياض، الأمر الذي مكّنها في عهد أبنائه وأحفاده من مواصلة توسعها والسيطرة على معظم مناطق شبه الجزيرة العربية.

كانت أولى خطوات محمد بن سعود الناجحة حين تولى الحكم هي اتخاذ قراره بتوحيد شطري الدرعية تحت قيادة واحدة، وفي ذلك يقول المؤرخ ابن بشر: "فاستقل محمد بعد هذه

لقد رأى الإمام محمد بن سعود أن في أحداث الرياض واضطرابها أثر في أمن المنطقة بأسرها، وأن دهام بن دواس هو الشخص المتغلب والوصي على ابن الأمير الشرعي ضد مغتصب الإمارة خميس، ونظراً للرغبة في حفظ هيبة الإمارة، والقضاء على الفتنة، وكسب موقف دهام بن دواس فقد اتخذ قرار مساعدة دهام واستجاب لطلبه.

◀ **تأسد الدعوة الاصلاحية:**

كان من المتوقع أن تجد الدعوة الإصلاحية قبولاً لدى الإمام محمد بن سعود نظراً لما تميز به من خصال الخير والتدين، وفي واقع الأمر كان تأييده للدعوة وحماسه الصادق في نشرها أحد أبرز الأعمال الخيرة التي قام بها.

39

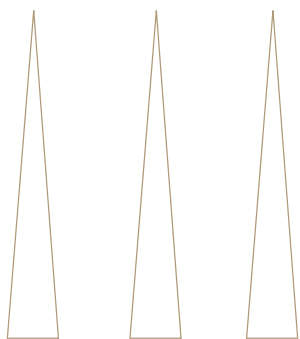
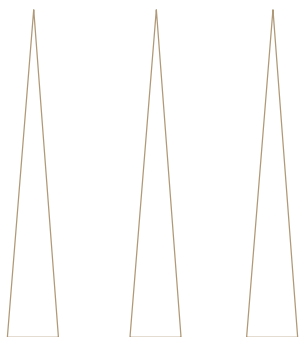
إن تتبع انتشار الدعوة يؤكد الصلات القوية لحكام الدرعية وأعيانها مع الدعوة خلال مرحلة العيينة التي امتدت من 1154هـ / 1741م وحتى 1157هـ / 1744م، ولم تكن الدرعية خلال تلك الفترة بعيدة عن الدعوة، فقد كان الشيخ قبل التجائه إليها على صلة وثيقة بعدد غير قليل من كبار رجالها من خلال تبادل الرسائل العلمية بينهم وبين الشيخ، ومن خلال حضورهم دروسه في العيينة، كالأميرين ثنيان ومشاري من إخوة الإمام محمد بن سعود، وآل سويلم، وغيرهم، بل إن الأمير عبدالعزيز بن محمد بن سعود قد طلب من الشيخ قبل انتقاله إلى الدرعية كتابة رسالة تتضمن تفسير سورة الفاتحة فكتب الشيخ هذه الرسالة وأرسلها إليه.

إنه من الأكيد أن الشيخ لم ينتقل إلى الدرعية إلا بدعوة من أميرها، ويشير مانجان الذي استقى معلوماته من آل سعود وآل الشيخ في مصر أن أنصار الشيخ في الدرعية لما عرفوا حرج موقفه في العيينة أبلغوا إمام الدولة بذلك، فأرسل إلى الشيخ مع بعضهم رسالة قد تكون شفوية يدعوه فيها للمجيء إلى الدرعية عاجلاً، ويعدّه الحماية والمنعة، وأن الشيخ. "في مثل هذه الظروف المتوترة رضي بالجوء إلى الدولة السعودية في الدرعية وإمامها محمد بن سعود. " و"أن الإمام محمداً أبلغ سلفاً باليوم الذي سيقدم فيه الشيخ على الدرعية فأرسل إليه عدداً من الفرسان لاستقباله ومواكبته على مسافة طويلة من البلدة " .

إن هذه الرواية أقرب إلى الدقة والتوافق مع سياق الأحداث، فالإمام محمد بن سعود كان مطلعاً على أمر الشيخ منذ أن كان في العيينة عن طريق بعض أفراد أسرته، وربما كان لهم ولزوجته موضي بنت أبي وهطان مزيد من التأثير في مبادرته بالتواصل معه وطلب قدومه إلى الدرعية، ومما يزيد من دقة هذه الرواية ما ذكره المؤرخ ابن لعبون في أوراقه بأن الشيخ انتقل إلى الدرعية بدعوة من الإمام.

ويؤكد مؤلف لمع الشهاب ذلك ضمناً حين ذكر أن الشيخ لم يخرج إلى الدرعية إلا بعد أن مُنح الأمان له ولعِياله، "فأعطوه ذلك فهيأ نفسه وعِياله ومن يتبعه للخروج فخرجوا ذلك اليوم قبيل غروب الشمس فأتوا (الدولة السعودية في الدرعية) قرية محمد بن سعود، ولما وصلوا قريباً منها بنصف ساعة أخبر به محمد بن سعود فخرج يلتقاه هو وابنه عبدالعزيز وكثير من أهل بيته وأهل بلده بالقبول والإكرام، فأنزله على مقام وأخلى بيته لأجله".

وهكذا يترجّح أن الشيخ لم يتحرك إلى الدرعية إلا بعد تلقيه دعوة من إمام الدولة، وكان مما شجع الشيخ على الانتقال إلى الدرعية، ما تميزت به من وجود دولة ذات قوة واستقرار واستقلالية في عهد الإمام محمد بن سعود حيث صمدت ضد هجوم بني خالد وقدمت الدعم للأمير الرياض دھام بن دواس، إضافة إلى صدها لاعتداءات بني خالد مما يضمن عدم ممارستهم ضغطاً على حكامها لإخراج الشيخ مجدداً كما فعلوا مع عثمان بن معمر أمير العيينة . ومن الواضح أن فكرة الانتقال كانت تراود الشيخ منذ كان في العيينة؛ لأنها هي السبيل الوحيد لمنحه الضمانات الكافية لحمايته ونشر الدعوة، ولذلك حاول الشيخ عقد مثل هذا





قيام الدولة السعودية الأولى

نظرية جديدة في تحقيق تاريخ
نجد الحديث والجزيرة العربية

د. صالح بن مخضوم السلمي

د. علي بن حسن النجعي





الإمام محمد بن سعود | دراسات تاريخية

وفي مراحلها الأخيرة إمارة صغيرة لا يتجاوز نفوذها وسط بلاد اليمامة استمرت حتى أواخر القرن الخامس الهجري 486هـ / 1093م.

على أي حال فإنه في هذه الفترة الممتدة ما بين سقوط الإمارة الأخيضرية وحتى منتصف القرن التاسع الهجري لم تظهر خلالها دولة أو إمارة منظمة تحكم الإقليم وتنظم شؤونه السياسية، والأمنية، والاقتصادية، والاجتماعية، بل سادت الفوضى والاضطرابات السياسية والأمنية بين القوى المحلية بعد سقوط الإمارة الأخيضرية، وهي صراعات بين قبائل يحكمها منطق القوة، ومن تلك القبائل قبيلة بني كلاب، وهم قبيلة تربطهم بأسلافهم الأخيضريين صلة مصاهرة، بل كان لهم دور في وصول الأخيضريين للحكم في اليمامة، ولذلك كان لهم نفوذ وغلبة وسيطرة في بلاد اليمامة بعدهم، ثم كانت الغلبة لقبائل أخرى بعدهم كبني عائذ، ومن انضوى تحتهم من آل يزيد، وآل مزيد، والدواسر، وبني عائذ بن سعيد، ثم مع مطلع القرن السابع الهجري كانت السيادة لبني حنيفة، وعودة مدينة حجر وتراجع مدينة الخضرمة عاصمة الأخيضريين واضمحلالها.

وأمام تلك الصراعات القبلية وذلك الفراغ السياسي وقعت المنطقة مجاًلاً لنفوذ القوى المجاورة .

عاد بنو حنيفة إلى مدينة حجر بعد زوال الأخيضريين، ومما يؤكد ذلك ما ذكره ابن فضل الله العمري (749هـ/1348م)، نقلاً عن الحمداني عام 677هـ/1278م عند حديثه عن بني يزيد، فعُد من ديارهم: **ملهم، وبنبان، وحجر، ومنفوحة، وصياحًا، وغيرها،** وبنو يزيد من بني حنيفة".

وعليه يمكن القول إن ظاهرة عودة السكان إلى وسط الجزيرة العربية والاستقرار وظهور المدن هو نذير ببداية قيام كيان سياسى وقيام دولة فى المنطقة، الأمر الذى تحقق لاحقاً على

وكان الوضع في نجد من الناحية السياسية كما يقول منير العجلاني أشبه بحال ملوك الطوائف، وفي الناحية الدينية أشبه بحال الجاهلية، ففي فترة حكم موسى بن ربيعة للدرعية وصل به الحال أن احتال على قتل أبيه ربيعة، أصابه بعدة جروح، ولكنه لم يستطيع القضاء عليه، وهرب إلى العيينة، فهرب إلى حمد بن حسن بن طوق في العيينة، فأحسن وفادته وأكرمه بسبب معروف سبق أن قدّمه له، وفي تلك الأثناء جمع موسى بن ربيعة جموعه من المردة، وجميع من عنده من الموالفة، وصبّح آل يزيد في النعمية والوصيل وقتل منهم أكثر من ثمانين رجلاً واستولى على منازلهم ودمرها فلم تقم لهم قائمة، وصارت هذه الواقعة مضرب المثل، فيقال: "صبحهم مثل صباح الموالفة لآل يزيد"، واستمر موسى بن ربيعة في الولاية إلى أن مات.

◀ الإمام محمد بن سعود وقيام الدولة السعودية الأولى:

هو محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع بن ربيعة المريدي، ويرجع نسبه إلى بني حنيفة بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، ولد عام 1090هـ/1679م ويصف العجلاني حال مؤرخي نجد بقوله: "لقد اكتفى مؤرخا نجد ابن غنام وابن بشر بتحديد السنة التي توفي فيها الإمام محمد بن سعود، ثم قصًا طائفة من الغزوات التي تمت في عهده، وكأن اسمه لم يكن أكثر من عنوان لتلك المغازي.

لكن على أية حال فقد كان محمد بن سعود أكبر أبناء سعود، وهو آخر أمراء الدرعية، وأول أئمة آل سعود والمؤسس الأول للدولة السعودية.

وتُنسب إليه الدولة السعودية، وليس إلى أبيه؛ ويعلل العجلاني ذلك بقوله أن حكم أبيه "لا يختلف كثيرًا عن حكم رؤساء الدرعية الذين سبقوه".

◀ الإمام محمد بن سعود ومشروع الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي:

- السمات الخُلُقِيَّة لِلإِمَام:

كان -رحمه الله- عابداً زاهداً مصلحاً عظيماً شجاعاً قائداً مقداماً عادلاً حازماً محباً للخير والفضيلة، منصفاً بين رعيته كثير الهبات والعطايا. وقد ذكر الثقات من المحدثين عنه أنه كان رجلاً كثير الخيرات والعبادة، كريم الطبيعة، ميسر الرزق، له أملاك كثيرة من نخل وزروع، وله عدد من المواشي، وقيل إنه من سخاوته كان الرجل يأتيه من البلدان يطلب من شيئاً كثيراً لوفاء دين عليه فإذا عرف أنه محقاً أعطاه إياه.

وعن شجاعته يذكر ابن بشر "أن الله جعل عز الإسلام على يديه، وجاد بنفسه وما لديه، ولم يخش لومة اللائمين، ولا كيد الأعداء المحاربين. محمد بن سعود وبنوه ومن ساعدوهم على ذلك وذووه، خلد الله ملكهم مدى الزمان، وأبقاه في صالح عقبهم ما بقي الثقلان، فשמروا في نصرة الإسلام بالجهاد، وبذل الجد والاجتهاد، فقام في عداوته الأصاغر والأكابر، وجروا عليه المدافع والقناير، فلم يثن عزمه ما فعل المبطلون".

وكل المظاهر الطبيعية التي تتمتع بها الدرعية لها أهمية بالغة في قوة الدولة واستمراريتها بعد قيامها على يد الإمام محمد بن سعود، وتعود أهميتها للانعكاسات القوية على استغلال الإنسان اقتصاديًا للرقعة الأرضية، أضف إلى ذلك قوة تأثيرها في حركة الاتصال والمواصلات في الدولة، وربط أطرافها بالمركز، وهذا أمر بالغ الحساسية بالنسبة لتماسك الدولة إذا ما تضافرت عوامل أخرى كالقوة الاقتصادية والمستوى الحضاري والقوة الاقتصادية.

ومن تلك الظروف الطبيعية والمقومات الطبيعية التي توافرت للدرعية الصخور الرسوبية الجيرية على شكل طبقات، وفي منطقة الجبيلة يوجد الحجر الجيري مما ساعد على النمو العمراني بحيث استعمل في البناء والتعمير، أضف إلى ذلك أن الماء في الدرعية متكون عبر تلك الطبقات في التكوينات الجيرية كخزانات مائية ضخمة يطلق عليها المياه الحفزية، وقد بلغت موارد المياه في الدرعية من الآبار الارتوازية والعادية قرابة 357 موردًا.

ومع وفرة موارد المياه وتنوع التربة، كالتربة الصخرية، التربة السائدة نشأت الدرعية كمركز للاستقرار الزراعي، فهي تمثل واحة من واحات هضبة نجد، وبذلك أصبحت الحرفة الرئيسة للسكان هي الزراعة، كزراعة النخيل التي أصبحت أيقونة في شعار الدولة الرسمي وترمز للحياة والنماء والرخاء.

إضافة إلى موقعها الطبيعي نجد الإمام محمد بن سعود منذ بداية حكمه كان يدرك أهمية تحصين البلدات النجدية التابعة له، بحيث كانوا إذا تولوا بلدًا كبيرًا أو كورة، بنوا حصنًا في تلك البلدة على حدة عن حصنها الأول إذا كان لها حصن، وحفروا حوله خندقًا إذا كانت أرضه صلبة، وأحكموا ببناء القلعة ورتبوا في الحصن قدر خمسمئة رجل عسكري.

والحديث عن تاريخ الدرعية-كما مر بنا- يعود إلى منتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وحينها كانت بلدة صغيرة تكبر مع الأيام شيئًا فشيئًا، لكنها لم تصبح عاصمة دولة كبيرة إلا عند وصول الإمام محمد بن سعود إلى حكمها في عام 1139هـ/1727م.

وهذا التاريخ مترسخ لدى المجتمع، وقد مرَّ بأربع حقبة تاريخية طويلة غرست ثقافتها وبنت تقاليدها في العقل الجمعي، في وعيه وفي لاوعيه، وصارت تؤثر في المجتمع بقوة التاريخ، هذه الحقبة هي: حقبة التاريخ القديم، وقد تشكلت خلالها البنية الاجتماعية للقبيلة والأسرة والقرابة أنظمة الحكم القبلية، واستثناس إنسان البادية للإبل، وقدرة إنسان المدينة على أن يكشف أهمية النخل بالنسبة لاقتصاده وغذائه، وحقبة ظهور الإسلام، وحقبة ما قبل الدولة السعودية الأولى، ثم الحقبة التي أسميتها في رأس الفقرة بـحقبة الانتقال من دولة المدينة إلى الدولة السعودية.

لقد شكّل هذا التاريخ 1139هـ/1727م ومن خلال مقومات المكان (الدرعية)، والشخصية (الإمام محمد بن سعود وأعماله) حدًا فاصلًا بين تاريخ نجد والجزيرة العربية التي كان يسودها الانقسام وتعمها الفرقة وعدم الاستقرار، وتكثر فيها الإمارات والمشیخات، تاريخ الصراعات والحروب والنزاعات والتناحر بين القبائل النجدية، صراع في حقيقته بين ما يمكن تسميته بدول المدن

ومن ذلك أن دھام بن دواس أمير الرياض حينما استولى على الحكم في الرياض لم يطلعه أهلها وسعوا إلى عزله وطرده، وحصلوه في قصر الإمارة، فأرسل أخاه مشلب بن دواس يطلب نجدة من الإمام محمد بن سعود، فقام لنجده ومناصرته، وكان مديناً للإمام محمد ببقائه في الإمارة، قال ابن بشر في حوادث عام 1151هـ / 1738م: "... وتولى دھام بن دواس، وكان قد طُرد هو وإخوته من منفوحة مع أهمهم ومشوا عند زيد بن موسى أبي زرعة فلما تولى أظهر أنه ضابط لولد زيد حتى يكبر ويتأهل للملك، فلما كبر طمع هو في الملك، وطرده ابن زيد، فأبغضه أهل البلد، وهموا بعزله وطرده لولا مساعدة محمد بن سعود له".

إن هذا الموقف فيه دلالة على نبيل الإمام محمد بن سعود وشجاعته وكريم أخلاقه وسلامة نفسه من الأطماع، وكان نُصب عينيه الاستقرار والأمن والبناء الحضاري، وفيه دلالة واضحة على حرصه على احتواء واستيعاب كل الكيانات والزعامات المجاورة.

وفي الاستقرار الأمني قام الإمام محمد بعمل عظيم بحيث بسط الأمن العام في إقليم العارض وأكثر ما يثير انتباه المؤرخين والباحثين في تاريخ نجد في بداية تأسيس الدولة السعودية هو تأمين طرق القوافل التجارية، وخصوصاً قوافل الحج التي تمر بالدرعية بالاتفاق مع كثير من القبائل في المنطقة ألا تتعرض لتلك القوافل، وهو الأمر الذي أنعش حركة التجارة وقوافل الحج المارة بالدرعية، وأسهم في رفع المستوى الاقتصادي والمعيشي فيها، فضلاً عن كون هذا العمل وربما لأول مرة قد أشاع الطمأنينة في نفوس الناس وساعد على التواصل بينهم بعد حالات التشردم والانقسام السابقة لعهد الإمام محمد بن سعود.

ومن أهم أعماله أيضاً:

تأييد الدعوة الإصلاحية، لعل تأييد الإمام محمد بن سعود للإصلاح ونشر الدعوة الإصلاحية هو ثمرة من ثمرات الإصلاحات الشاملة التي قام بها الإمام في فترة الدولة خلال العشرين سنة الأولى من عمرها، بمنزلة تنويع لفكرة الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي، ساعد عليه أن الدولة وعاصمتها الدرعية كانت بيئة خصبة مهّدت لتبني هذه الدعوة.

ومما لا شك فيه أن الدعوة الإصلاحية كانت قد استفادت كثيراً من هذا التبني، ولذلك يقول فيليبي: "لولا محمد بن سعود ما كان للدولة السعودية كيانها...". فقد كان الإمام محمد بن سعود حريصاً على تطبيق الشريعة الإسلامية بين رعيته قبل وصول الشيخ محمد بن عبد الوهاب، بل كان ذلك الأمر حافزاً للشيخ على القدوم إلى الدرعية.

ولعل ذلك لم يكن حافزاً على قدومه وحسب، بل كان قدوم الشيخ بدعوة من الإمام محمد بن سعود، وقد أُكِّد ذلك كثير من المصادر، كالمؤرخ النجدي ابن لعبون، والمؤرخ الفرنسي مانجان. وقد وجدت الدعوة الإصلاحية في الدرعية بيئة خصبة ساعدتها على الانتشار، بحيث حصل الشيخ على تأييد من إمام الدولة السعودية ومن قاضيهما الشيخ عبدالله بن عيسى بن عبدالرحمن في فترة حكم الإمام محمد بن سعود، وكانت بينهما مراسلات قبيل رحيله إلى الدرعية. ثم إن مما ساعد على ذلك أن الدرعية كانت بيئة خصبة علمياً مهدت لجيل من المتعلمين.

وبعد أن دعا الإمام محمد بن سعود الشيخ محمد بن عبد الوهاب استثمر بنكاء كبير مكانة الشيخ الدينية والعلمية، فإضافة إلى أن العرب -كما يقول ابن خلدون- لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية، أيضاً وجّه الإمام محمد بن سعود تلك الطاقة الدينية والروحية وجهة صحيحة، ووظّف ذلك التخصص الفقهي والشرعي توظيفاً أمثل في خدمة السلطة القضائية وفي الفتيا وفي مجال التعليم. أما السلطة التنفيذية فصاحب الأمر والنهي فيها هو الإمام محمد بن سعود.

وبعد تبني الإمام للدعوة الإصلاحية عمل لتوجيهها التوجيه الأمثل فيما يخدم المشروع
الوحدوي داخلياً في نجد وخارجياً فيما بعد فترة حكم الإمام المؤسس في الجزيرة العربية كلها
وخارجها. ولم تصبح الدرعية مركزاً دينياً وسياسياً فحسب، بل مركزاً سياسياً يجيد أتمتها التعامل
مع فكرة الثقافة الدينية وقدرتها على كسب الرأي العام، وهكذا استطاعت الدرعية أن توحّد
نجداً تحت راية واحدة وهدف واحد .

◀ فكرة الوحدة السياسية:

لم تكن المنطقة على استعداد لتقبل فكرة الوحدة، وكانت أنظمة الحكم القبلية تعزز فكرة التشرذم والتعدد والانقسام أكثر من فكرة الوحدة، ولذا كان الاستيعاب لهذه الفكرة في غاية الصعوبة، ولكن حين رأى الناس الآثار الإيجابية للدولة التي بدأ الإمام محمد بن سعود في تأسيسها أخذت فكرة الدولة والوحدة في وعي الإنسان المحلي تتسرب وتحل محل فكرة التعدد والتشرذم والانقسام.

وقد وقع على عاتق الإمام نشر ثقافة الدولة والوحدة وتأمين الاستقرار في الدرعية وإزالة أسباب الفرقة والتشرذم مع البلديات المجاورة، فكان لسياسة الإمام محمد بن سعود تجاه العيينة والرياض وغيرها الأثر العظيم في تمكين الدرعية لتقوم بدور سياسي كبير في المنطقة، وتكون مستقلة عن أي نفوذ خارجي.

لكن مع ذلك فإن الإمام محمد بن سعود لم يصطدم مع هذه البلديات المجاورة إلا بمن يحاول عرقلة فكرة الوحدة السياسية التي يؤسس لها، ولذلك رأينا قبل كيف أنه في عام 1151هـ/1737م لم يألُ جهداً في الوقوف مع دهام بن دؤاس عندما اضطربت عليه الأوضاع الداخلية ولم تستتب له الأمور في الرياض. لكن عندما شعر الإمام محمد بن سعود أن دهام بن دواس عقبة كأداء في سبيل مشروع الوحدة وأنه لا يحفظ الجميل لجيرانه بل إنه بدأ بمهاجمة أتباع الدولة السعودية أخذ الإمام محمد على نفسه المسارعة في تذليل هذه العقبة وخاض في سبيل تجاوز تلك العقبة العديد من المعارك والوقائع خصص لها ابن غنّام ولغيرها جزءاً من تاريخه، كوقعة فيضة لبن، ووقعة الشياّب، ووقعة العبيد، ووقعة الخريزة، وبعد مؤتمر الدرعية عام 1167هـ/1753م الذي عُقد لمتابعة مستقبل الدولة في الداخل والخارج، طلب دهام بن دؤاس من الإمام محمد بن سعود عقد صلح لكنه نكثه عام 1168هـ/1755م، وتجدد الصراع بين الطرفين، وهو الأمر الذي اضطر دهاماً إلى طلب الصلح من جديد، ووافق الإمام محمد بن سعود على ذلك وظلت العلاقة كذلك حتى وفاة الإمام محمد بن سعود عام 1179هـ/1765م، قدّم خلال فترة الصراع مع ابن دؤاس اثنين من أبنائه، وهما فيصل وسعود اللذين استشهدوا في هذا الصراع.

هذا العمل الذي بدأه المؤسس كان ملهمًا لمن جاء بعده في أهمية الرياضة وضرورة ضمّها إلى مشروعه الكبير توحيد نجد والجزيرة العربية، الذي أَسْتَكْمَل في عهد ابنه عبدالعزيز عام 1187هـ/1773م.

◀ ابتداء فكرة توحيد بلدان نجد:

نجح الإمام في المراحل التأسيسية المهمة في ضم عدد من بلدان نجد، مثل ضرماء، وشقراء، وحريملاء، والعيينة، ومنفوحة، والعمارية، والقويعة، وساعده على تلك المهمة أنه كان يواجه قوى محلية مفككة. وأول مدن نجد التي انضمت سلمياً إلى مشروع الدولة السعودية هي مدينة شقراء في منطقة الوشم، وكان بعض أهالي منطقة الوشم قد رفضوا تقبل مشروع وحدة نجد والجزيرة العربية، ثم توالى المواجهات مع منطقة الوشم ودخلت مدنها تباعاً، كانت أول مواجهة مع أهالي ثرمداء بقيادة عبدالعزيز بن محمد بن سعود، وعثمان بن معمر عام 1161هـ/ 1748م، لكن لم يتم توحيدها إلا عام 1173هـ/ 1759م، ثم كان للإمام ضم أشيقر وبلدة القصب ومراة والفرعة. وفي هذه الفترة واجهت الدولة حملات عسكرية من حكام الأحساء من بني خالد بقيادة زعيمهم عريعر بن دجين سنة 1172هـ/ 1758م، لكنه وجد الدولة السعودية قد استعدت لمقاومة الحصار ببناء سورين حول البلدة، ولم تغلح قواته في دخول أي من البلدان في نجد، فاضطر إلى الانسحاب دون تحقيق أي انتصار على الدرعية.

كما واجهت الدولة في عهده حملة عسكرية أخرى بقيادة زعيم نجران حسن بن هبة الله المكرمي الذي زحف بقواته إلى الدرعية والتقى بجيش الدولة في الحائر عام 1178هـ/1764م وانتهت المعركة بهزيمة القوات السعودية لكن زعيم نجران رأى المحافظة على ما حققه من نصر والإسراع في العودة إلى بلاده، واكتفى بعقد صلح بين الطرفين تبادلاً فيه الأسرى.

وفي منطقة سدير وبعد أن رفض بعض أهاليها الانضمام للدولة السعودية ومشروع الوحدة الذي ينادي به الإمام محمد بن سعود قادت الدولة عدداً من الحملات وتمكنت من ضم هذه المنطقة إلى الدولة السعودية.

وفي تلك الأثناء توفي الإمام محمد بن سعود وتولى ابنه عبدالعزيز بن محمد بن سعود (1179-1218هـ / 1765-1803م)، وقد ترك له والده أساسات متينة للدولة، وحدد له أطر الوحدة السياسية، وهو ما جعل الدولة في عهده تستأنف حملاتها لتوحيد البلاد، فتجاوز خلال السنوات الأولى من حكمه وسط نجد كالوشم، وسدير، وبعض بلدان القصيم، وتوج ذلك كله بتوحيد الرياض سنة 1187هـ/1773م.

الخاتمة:

رأت الدراسة أن عام 1139هـ/1727م هو بداية التحقيب لتاريخ نجد والجزيرة العربية الحديث، ومن خلال أعمال الإمام محمد بن سعود استطعنا البرهنة على صدق الفرضية.

إن فكرة التحقيب هي لحظة اتفاق ما بين فاعلين في إطار جغرافي وفكري وزمني محدد، ولذلك التحقيب كالنموذج العلمي يسود فترة حتى يأتي نموذج آخر يحل محله.

وقد أثبتت الدراسة عدم صحة القول بأن لجوء الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى الدرعية وحماية الإمام محمد بن سعود له في عام 1157هـ / 1744م هو الانطلاقة الأولى للدولة السعودية الأولى، وأن هذه السردية كتبت من قِبل من المؤرخين الذين تتلمذ بعضهم على يد الشيخ وتلاميذه، وسيطر على ذهنهم التفسير الديني للتاريخ، ثم قلدهم فيما بعد كتاب آخرون عن عدم إدراك أو لأنهم ينتمون إلى المدرسة نفسها، أعني مدرسة التفسير الديني للتاريخ .

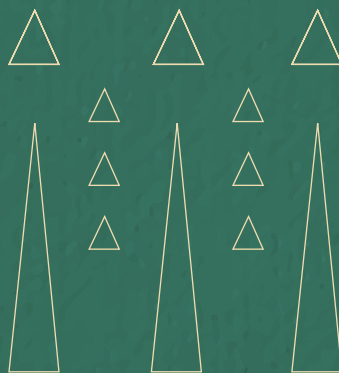
موقع الدرعية في الطرف الشمالي من مدينة الرياض إلى صياغتها عبر الزمن، وهو الأمر الذي أهلها لبناء حضارة، ومكّنها بمشيئة الله من البقاء والعودة بعد السقوط.

عبقرية الإمام محمد بن سعود الفكرية والقيادية الفذة، بحيث استطاع توظيف المكان (الدرعية)، والتاريخ (السياق التاريخي) في سبيل مشروعه الوحدوي، فرتّب الأمور في الداخل مع الإمارات المجاورة محاولاً عدم الصدام معهم وكسبهم إلى جانبه. إضافة إلى أنه استثمر كل فكرة وقام بتوظيفها التوظيف الأسلم، فقد استثمر حتى فكرة التوحيد وانتقل بها من المجال الديني إلى المجال السياسي والاجتماعي، وجمع هو وأبناؤه من بعده أجزاء نجد تحت راية واحدة.



ولادة الإمام محمد بن سعود وإمامته وصفحات لم تُكتب في تاريخه

د. عبدالله بن سعد بن محمد أباحسين





الإمام محمد بن سعود | دراسات تاريخية

الزوال، وعوامل الثبات، وركائز البقاء، وأعمل نظره فيها، وأدار عقله في حوادث بلدان العارض القريبة ومآلاتها، وقلَّب في مخيلته صفحات سيرة بلده الدرعية، وتتَبَّع سَيْرَهَا مُذ تَمَلَّكَهَا جَدُّه مانع بن ربيعة المريدي، ومُنْذ مبادرتِه مع أبنائه لعقد حِلْفٍ بَيْن أَشْتَاتِ فُرُوعِ قَبِيلَتِهِ الْأُمِّ (بني حنيفة) الَّذِينَ كَانُوا قَرِيبِينَ مِنْهُ، وَتَصْيِيرِهِ لَهُمْ قُوَّةً يُضْرِبُ بِاسْمِهِمُ (الموَالِفَةُ) الْمَثَلُ فِي الصُّمُودِ وَمَوَاجَهَةِ الْخَطُوبِ، يُقَالُ: (صَبَّحَهُمْ صَبَاحُ الْمَوَالِفَةِ)، وَأَعْمَلَ نَظْرَهُ فِي مِشَارَكَةِ الدَّرْعِيَّةِ لِعَدَدٍ مِنَ الْحُرُوبِ، وَقَيَّمَ الْجَدُوى، وَلَمْ يُغْفَلْ قُوَى الْبَادِيَةِ الْمُتَغَلِّبَةِ فِي الْمَسَاحَاتِ بَيْنَ الْبُلْدَانِ النَّجْدِيَّةِ، وَمَا جَرَى عَلَيْهِمْ، وَتَتَابَعَهُمْ عَلَى النَّفُوزِ فِيهَا، وَتَحَالَفَتَهُمْ مَعَ رُؤَسَاءِ الْبُلْدَانِ، وَأَنْعَكَاسَاتِهَا عَلَى الْإِنتِصَارِ أَوْ الْهَزِيمَةِ.

ومع أنّ أحوال آل وطبان مضطربة آنذاك، فإن محمد بن سعود ووالده وجدّه وآل مقرن كانوا ينعمون باستقرار في غصيبة تحت ظلّ رئيسها محمد بن مقرن، ولم يُعكّر صفو عيشهم إلا وفاته سنة 1106هـ/1694م، يعني لما استتمّ لمحمد بن سعود ست عشرة سنة، وبوفاته وتولّي ابنه سعود؛ تفتّح صفحة جديدة من حياة محمد بن سعود، مدادها: صُحبة والده، الرئيس الجديد، ومعاضدته، والقيام بما يُسندُه إليه من المهام.

ولم يكمل عقده الخامس إلا وقد ذاع ذكر كمال عقله، وحُسن خلقه وتعامله وكرمه، وشُكر سَيَرِهِ وسيرته، وشاع أَنَّهُ مأمون الجانب، صادق الوعد، شديد القلب عند البأس، رابط الجأش عند اللقاء، عَزِيزٌ عَلَى الأَمْرِ الذي هو فاعله، يُعِدُّ الحَزْمَ أساساً، وَأَنَّ الأُمُورَ إِذَا لَمْ تُؤْخَذْ فِي مَبَادِيهَا عَسَرَ تَدَارُكُهَا بَعْدَ تِمَادِيهَا.

﴿رئاسته في الدرعية وإمامته:﴾

في سنة 1139هـ/1727م تولى الإمام محمد بن سعود رئاسة الدرعية، وكان أول ما بدأ به أن سد الخلة التي يتسلل منها الضعف، وجمع البلد على رئيس واحد بعد فترات من الخلف والانقسام، ووصفه المؤرخون بما يدل على رئاسته وإمامته، حاله كحال الرؤساء والأئمة في تاريخ المسلمين، فإنه لم يترأس في الدرعية بأمر من ملك قريب أو بعيد، وإنما بشوكة وشوكة عشيرته، قال المؤرخ محمد بن عباد: (شاخ ابن سعود في كل الدرعية)، وقوله (شاخ) يعني: ملك، وتولى، وترأس، يقولون - مثلاً: (شيخة محمد بن مهنا في مقرن سنة 1056هـ)، يعني: رئاسته، ويقولون: (شاخ رميزان سنة 1057هـ)، يعني: ترأس في بلدة الروضة، وهكذا، ويؤكد أن المتأخرين من المؤرخين التجديين ربما عبروا عن خبر رئاسة أحدهم بقولهم: (تولى رئاسة)، بينما عبر المتقدمون عن الخبر نفسه بقولهم: (شاخ)، وقال عنه الفاخري: (الرئيس)، وقال عثمان بن بشر: (الإمام الرئيس)، وذكر بعض الحوادث، وجاء في سياقه ما يدل على إمامته، قال في أخبار سنة 1167هـ (1754-1755م): (طلب دهام بن دواس من محمد بن سعود المهادنة، فطلب عليه الإمام محمد بن سعود خيلاً وسلاحاً)، وذكر أن عبدالعزيز بن محمد بن سعود كان ولياً للعهد، قال: (وكان ولي عهد بعد ابنه عبدالعزيز).

وجاور محمد بن سعود رؤساء، بنفس بذات الطريقة التي تولّى بها، وتعامل أولئك الرؤساء المتجاورون فيما بينهم، ومع قوى البادية المتغلبة على المساحات الشاسعة بين البلدان التّجديّة؛ بحسب ما يُقدّرونه من مصالح ولاياتهم ورعاياهم، وكلُّ منهم اعتبر في تعاملاته مبلغ نفوذه وقوّته ونفوذ مجاوريه من الرؤساء.

ونظر فقهاء نجد إلى واقع البلدان التَّجْدِيَّة نظراً شرعياً، وتناقضوا في مجالسهم العلميَّة قول الشيخ أحمد بن يحيى بن عطوة (ت: 948هـ) عن الرؤساء: إِنَّ ولاياتهم صحيحة، وحكمهم كغيرهم من ولاة المسلمين، وقرروا أَنَّهُ لا يتولَّى أحدٌ منهم القضاء في بلد إلا إذا ولَّاه رئيس البلد، وإذا خرج القاضي من البلد الذي وُلِّي فيه فَإِنَّهُ لا يقضي، ولا يجوز حُكْمه، ونصَّوا على ذلك، وعملوا بالمسائل المتَّصلة بالأئمة في شريعة الإسلام كقبض الزكاة، والشيخ ابن عطوة لم يُشئ الحُكم من نفسه، وإنَّما نقل صورة المسألة إلى الشام، وحكاها لشيخه أحمد بن عبدالله العسكري (ت: 910هـ)، حيث سأله عنها فأجابها بأنَّ حُكمهم كغيرهم من السلاطين في سائر الأوطان، وكان الشام ساعة جواب العسكري تحت حُكم سلطان دولة المماليك. والإمامة ملك وسلطان، فمن حصل له الملك والسلطان، وصار يولِّي ويعزل، ويعطي ويحرم، ويقسم الأموال، فهو إمام عند أهل السنَّة والجماعة، ولا اعتبار لسعة مملكته. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (إنَّ أهل السنَّة والجماعة يقولون: الأمير والإمام والخليفة ذو السلطان الموجود الذي له القدرة على مقصود الولاية)، وذكر أَنَّهُم يخبرون بالواقع، ويأمرون بالواجب، فيقولون إِنَّهُ تولَّى بنو العبَّاس على العراق والشام ومصر، وتولَّى بعض بني أمية على الأندلس، وتولَّى غيرهم في جهة ثالثة، ولو تولَّى من هو دون هؤلاء من الملوك لكان خيراً من عدمهم.

◀ الحراك العلمي في الدرعية من سنة 1139هـ إلى سنة 1157هـ:

يلفت انتباه قارئ رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب قبل سنة 1157هـ ما يدل على مكانة علمية عالية لبلدة الدرعية، فإنّه طلب من بعض علمائها تأييده في مسألة حلّ الرشوة، قال: (أنا كاتب لكم تسجلون على كلامي فيها)، وكتب رسالة إلى أهل بلدي الرياض ومنفوحة، وبعث بها إلى بلدة الدرعية قبل إرسالها إليهم، وغرضه أن يؤيّد عالمها، فأيّده، وأشار إلى ذلكم العالم وتأييده في أثناء الرسالة، ومدحه فقال: (لا نعرف في علماء نجد ولا علماء العارض ولا غيره أجلّ منه، وهذا كلامه واصل إليكم)، يقصد الشيخ عبدالله بن عيسى بن عبد الرحمن، ورصدنا ثلاثة علماء آخرين في الرسائل التي جمعنا، وهم: الشيخ عبدالله بن عبد الرحمن بن سويلم من العرينات، والشيخ عبد الوهاب بن عبدالله بن عيسى، والشيخ محمد بن سلطان العوسجي، والأخير لم أجد إفادة بكونه في بلدة الدرعية إلا في رسالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إليه، قال ناسخها: (أرسلها الشيخ محمد -رحمه الله- وهو في العيينة إلى محمد بن سلطان من أهل الدرعية)، وجاء ذكر اسمه في رسالة كتبها الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى تلميذه في الدرعية، قال: (ذكر لي محمد بن سلطان أن جرى عندكم مسألتان)، وصُحّف اسمه في مطبوع الرسالة عند ابن غنام إلى (ابن سليمان).

ورصدنا أيضاً ثلاثةً من طلبة العلم، رحلوا من الدرعية إلى بلدة حريملاء في فترة مكث الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيها بين سنتي 1140هـ تقريباً و1154هـ، قال في إحدى رسائله: (بيّته لكم مراراً)، وهم: ثيان بن سعود، وأحمد بن محمد بن سويلم، وعيسى بن قاسم، ولهم مشايخ في بلدة الدرعية بحسب إحدى الرسائل التي جمعنا، فقد ذكر الشيخ محمد لتلميذه عيسى وأحمد مسألةً فقهيةً، وأبان لهما أنّهما ومن يتعلمون عندهم يسمونها التصحيح.

فبان بما جمعته واستنبطته وجود مكانة علميّة عالية لبلدة الدرعية في الفترة من سنة 1139هـ إلى سنة 1157هـ، ووجود حراك علمي ظاهر فيها، في حين أننا نلاحظ خمول ذكر للحراك العلمي في بلدة الدرعية في المجموع الضخم الذي ألّفه الشيخ أحمد بن محمد المتقور (ت: 1125هـ)، وجمع فيه أجوبة وأحكام علماء القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، ونقل فيه من خطوطهم، وسَمّاه: (الفواكه العديدة في المسائل المفيدة)، فإنّ قارئه يجد ذكراً متكرّراً لعلماء في بلدان العارض، بلغ عددهم: سبعة عشر عالماً، ليس منهم في الدرعية إلا عالمٌ واحد، وهو موسى بن عامر بن سلطان الباهلي، توفي سنة 1021هـ، في حين أن في بلدة مقرن التي أُطلق عليها اسم الرياض؛ تسعة علماء، وهم:

وإذا كانت الدرعية بهذا الشأن، في فترة حكم الإمام محمد بن سعود، وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب يرسل إلى علمائها رسائل، ويطلب تأييدهم، ويوجه في أخرى تلاميذهم، فلما أن نتساءل: هل تردّد ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب على أسماع الإمام محمد بن سعود في تلك الفترة؟

روى ابن غُثَام خبر خروج الشيخ محمد بن عبد الوهاب من بلدة العيينة آخر سنة 1157هـ، وأفاد أنَّه توجَّه إلى بلدة الدرعية، وإلى بيت الشيخ عبدالله بن سويلم تحديداً، فبات فيه تلك الليلة، وأقام عنده ذلك اليوم، ثمَّ انتقل بعدُ إلى بيت تلميذه الشيخ أحمد بن سويلم، ثمَّ إنَّ الإمام محمد بن سعود سمع بخبر قدوم الشيخ محمد إلى الدرعية، فقام إليه مسرعاً، ومعه أخواه مشاري وثنيان، فأتاه في بيت الشيخ أحمد بن سويلم، وبادر بقبوله وإكرامه وتبجيله، وعاهده أنَّه يمنعه بما يمنعه به نساءه وأولاده من جميع من عاداه وكاده، إلا أنَّه طلب من الشيخ العهد والميثاق أن لا يرحل عن بلده.

الأول: أنه اشتهر نهي الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن مسائل ظاهرة، ومنتشرة، وعادات، ومألوفات، من أبينها وأوضحها مسألة تُعمل في مساجد الدرعية وبلدان العارض، وهي التذكير، وصورتها: أن المؤذن يُضيف إلى الأذان الصلاة على النبي ﷺ ليلة الجمعة وفي يومها تذكيراً بالجمعة، قال الشيخ أحمد المنقور: (لم يذكر أصحابنا الصلاة والسلام على النبي ﷺ بعد الأذان كما يفعل في زماننا)، وذكر كلاماً يُفيد استحباب ذلك عنده، وعَلَّ، وكان الشيخ عبد الوهاب بن سليمان بن علي، والد الشيخ محمد يؤيد ما ذهب إليه المنقور، فقد قُرئ مجموعته عليه، ووجدت له هامشاً على نسخة خطية للفواكه العديدة، فُرج من نسخها سنة 1131هـ، قال: (أمَّا الصلاة على النبي ﷺ بعد الأذان فأول حدوثه في زمان أحمد بن طولون أمير مصر حين احتاج الناس إلى ذلك، ثم صار ليلة الجمعة إلى يومنا هذا ويوم الجمعة، أجمع المسلمون على ذلك من هاك الوقت إلى الآن، وقد ذكر

وعدم التسليم لابن بشر يجعلنا أمام مسؤولية علمية، فإننا إذا أثبتنا حقيقة معرفة الإمام محمد بن سعود بالشيخ محمد بن عبد الوهاب وما ينهى عنه من مظاهر موجودة في بلدة الدرعية في الفترة السابقة لقدم الشيخ محمد بن عبد الوهاب إليها، فسنقف أمام سؤال كبير، وهو: ما موقفه حينها؟ وهذا ما سأتكلم عنه في المبحث التالي.

يبدو لقارئ رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى بعض علماء الدرعية قبل سنة 1157هـ أن أحدهم وهو الشيخ عبد الوهاب بن عبد الله بن عيسى، كان ينقض ما يقرّره الشيخ محمد بن عبد الوهاب، قال الشيخ محمد في رسالته إليه: (إذا جاءك مساعد أو ابن راجح وآل صالح بن سليم وأشباه هؤلاء، الذين تلقنهم شهادة أن لا إله إلا الله، وأن عبادة المخلوقات كفر، وأن الكفر بالطاغوت فرض؛ فمت تجاهد وتبالغ في نقض ذلك، والاستهزاء به. وليس الذي يذكر هذا عنك بعشرة ولا عشرين ولا ثلاثين، ولا أنت بمتخف في ذلك، ثم تظن في خاطرك أن هذا يخفى عليّ، وأنا أصدقك إذا قلت ما قلت، ولو أن الذي جرى عشر أو عشرون أو ثلاثون مرة أمكن تعداد ذلك) اهـ، وذكر في أوّل الرسالة أنّ ذلك حصل منه قبل خمس سنين من كتابتها، وهو - مع التنصيص على الاستفاضة - يؤكّد أن شهرة معارضة الشيخ عبد الوهاب في الدرعية آنذاك، وجاء في آخر الرسالة ما يُفيد أنّ الشيخ عبد الوهاب بن عبد الله ما زال بأبيه حتى غيّر، قال عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب لما كان في بلدة العيينة وقبل أن ينتقل إلى الدرعية: (أمرك هذا أشقّ عليّ من أمر الحسا، خصوصاً بعدما استركبت أباك وخرّبتّه) اهـ، وعاتب في رسالة أخرى أباه





الإمام محمد بن سعود الفكرة، والقوة، والنخبة

د. يوسف بن عثمان بن محمد بن حزم





◀ الروح الكامنة

في كلِّ منا امتداد لروح وثقافة -عادات وتقاليد -أسلافه العابرة للزمان، ولا سيما المجتمعات والقبائل والعشائر الممتدة. إن تلك الروح كامنة في أرواح الناس لا سيما القيايين منهم حين تكون ذاكرتهم الشخصية هي الذاكرة الجمعية لأسلافهم.

◀ الإمام محمد بن سعود نسبه وعمره وزوجاته وأولاده:

هو: محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع المريدي من بني حنيفة من عدنان.

ولد الإمام بالدرعية عام 1090هـ .

ومن زوجاته: مuzzi بنت سلطان بن أبي وهطان من آل كثير آل فضل.

ولهُ من الأبناء الذكور: فيصل، وسعود، وعبد العزيز، وعبد الله، وعلي، ومرخان، والبناات: هيا، وطرفة.

◀ أسلاف الإمام محمد بن سعود:

تكاد تجمع المصادر على أن عشيرة آل سعود هم: الدروع والمردة، وكان الأمير مانع المريدي الجد الأعلى للأسرة السعودية يقيم قديماً في بلدة الدرعية التي بناها أجداده شرقي الجزيرة العربية.

وفي عام 850هـ/1446م قدم مانع على ابن عمه ابن درع رئيس بلدة (حَجْر) و(الجزعة) الواقعتين في وادي العرض (وادي حنيفة) فأقطعه قطعتين متجاورتين من البلاد هما (الملييد) و(غَصِيبة) موقعان معروفان حتى اليوم، فأنشأ الأمير مانع المريدي فيهما بلدة الدرعية وأقام فيها مزارع وغرس أشجار النخيل وأطلق على تلك البقعة اسم الدرعية، وهي اسم البلدة التي كان يسكنها الأمير مانع في النواحي الشرقية.

وقد أشار ابن بشر المؤرخ إلى أن نسب (المردة) الذين ينسب إليهم الأمير مانع المريدي يعود إلى بني حنيفة إحدى قبائل بكر بن وائل.

وجاور مانع وبنوه أقاربهم الحنفيين من سكان الوادي، فكان جيرانهم من الجهة الغربية الشمالية آل يزيد الحنفيين، ومن الجهة الجنوبية الشرقية - وهي أسفل الوادي - أبناء عمهم آل درع أصحاب حَجَرِ والجَزْعَة، أما أعلى الوادي من الجبيلة إلى حريملاء فهو لآل معمّر التميميين.

وقد تمددت الأسرة في وادي حنيفة بجوار جيرانها من آل يزيد، وتناوب على الحكم فرعا الأسرة الكيран من أبناء مرخان: ربيعة، ومقرن، فيما باقي الفروع هم: آل سيف (آل يحيى)، وآل عبدالرحمن وآل عبدالله (آل وطيب، وآل حسين، وآل عيسى).

وفي عام 1132هـ/1719م تولى سعود بن محمد بن مقرن حكم الدرعية لتنتقل الدرعية إلى مرحلة جديدة تتسم بالاستقرار.

تولى سعود بن محمد بن مقرن في الدرعية كبير فرع آل مقرن: سعود بن محمد بن مقرن، وبقي فيها حتى وفاته ليلة الفطر عام 1137هـ/1724م وقد خلف سعود أربعة أولاد هم: محمد وثنيان ومشاري وفرحان.

◀ الروح الكامنة في الجماعة:

إن الإمام محمد بن سعود وأسرة آل سعود؛ هم نتاج روح الجماعة، التي سكنت وادي حنيفة منذ عام 850 هـ/ 1446م مع عودة الجد مانع، ومن تلك الروح القيادة والتأثير والجسارة والحكم خلال 600 عام؛ بل تجد أن فرعاً منهم: آل وطبان خرجوا بعد تولي الإمام محمد بن سعود الإمارة عام 1139هـ/ 1727م إلى بلد الزبير بالعراق، ثم نجدهم يحكمون هناك، ناهيك عن تمددهم الدائم في جزيرة العرب حتى أصبحوا حجر أساس فيها.

يقول جوستاف لوبون: "الجماعات بالمعنى المتعارف: الليف من القوم مطلقاً وإن اختلفوا جنساً وحرفة ذكوراً كانوا أو إناثاً وعلى أي نحو اجتمعوا. أما في علم النفس، فلها معنى آخر، ففي بعض الظروف يتولد في الجمع من الناس صفات تخالف كثيراً صفة الأفراد المؤلف هو منها، حيث تختفي الذات الشاعرة وتتوجه مشاعر جميع الأفراد نحو صوب واحد؛ فتتولد من ذلك روح عامة.

إن حركاتنا المقصودة لنا أو الشعورية هي مجموع أسباب لا شعورية متولدة على الأخص من تأثير الوراثة فينا، وهذا المجموع يشتمل على بقايا الآباء والجدود التي لا يحصيها العد، ومنها تتألف روح الشعب أو الأمة التي نحن منها".

◀ الزمان والجغرافيا يستدعيان القائد:

إن وصول الإمام محمد بن سعود للحكم ثم تحوله لمشروع دولة إبان عهده قد يعلل من خلال نظرية السمات التي ترى أن أشخاصاً لديهم سمات خاصة تجعل منهم قادة "عظماء"، وبسبب هذا الاعتقاد فإنه يمكن التمييز بين القادة وغير القادة من خلال مجموعة عامة وشائعة من السمات، حيث توصل الباحثون من أمثال ستوجديل "Stogdil" ومان "Mann" وكير كباتوك "Care Kpatok" ولوك "Locke" إلى تحديد تلك السمات بما يأتي:

- الذكاء - الثقة بالنفس -العزيمة - الاستقامة الاجتماعية.

بيد أن الباحث يرى أيضاً أن ظرفي الزمان والمكان هما عاملان حاسمان في نجاح الإمام محمد بن سعود.

◀ وصول الإمام للحكم:

إن قدر الله ماضٍ ثم ما ملك القائد الإمام محمد بن سعود من سمات: الثقة والشجاعة والوفاء بالعهد، ولأنما الأحداث تقود لتهيئة ميلاد حكم جديد للجزيرة العربية شرطه الأساس استعادة الحكم والالتفاف حول القائد دون نزاع.

يقول ابن بشر: " وفي سنة تسع وثلاثين ومئة وألف قُتِلَ مقرن بن محمد بن مقرن صاحب الدرعية، قتله ابن أخيه محمد بن سعود بن محمد بن مقرن، وذلك أن مقرن بن محمد لما صالح زيد بن مرخان طلب من زيد أن يأتيه لتمام الاستئناس به والثقة، فخاف زيد وقال: لا

◀ أن تعيش من أجل فكرة كبيرة

لم يكن عهد الإمام محمد بن سعود عهداً سياسياً ودينياً فحسب؛ بل هو ميلاد أمة على يد آباء مؤسسين سيدوم عقدهم الاجتماعي بعدها ثلاثمائة عام إلى أن يشاء الله، وهذا ما يسمى بالتحويلات الكبرى في التاريخ بعد ما أثار هذا الانقلاب في الاجتماع السياسي في مجمل العالم الإسلامي، وبلغ ذروته في دوره الثالث مع الملك عبدالعزيز (طيب الله ثراه) وأبنائه الملوك من بعده سعود وفيصل وخالد وفهد وعبدالله (رحمهم الله)، ثم عهد خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز حفظه الله، الذي عنوانه الكبير: التجديد وإعادة البناء.

◀ الدعوة الإصلاحية:

إن القوة النافذة هي التي تنبثق من فكرة فلسفية عقلانية دافعها مقتضى الحاجة أو الألم أو الأمل، فما بالك إذا كانت ذات مبادئ فتشكل أيديولوجيا يعرّف فيها الإنسان والمجتمع والسلطة نفسه والآخر ابتداءً، ثم يضع رؤاه للمستقبل لتكوين مشروع استقرار وتنمية وازدهار.

إن الفكرة لم تصبح منهج حياة للإمام أو لأهل الدرعية أو للمؤمنين بها في سائر البلدان فحسب، بل أسهمت بسرعة في نشأة الدولة ودوام قوتها وتوطيد حكم آل سعود.

يقول ابن خميس: "كان الإمام محمد بن سعود حكيماً موفقاً في سياسته مع جيرانه وغيرهم، على الرغم من الفتن التي تغلي في المنطقة". وعلى الرغم من العداء المستمر بين أهلها فكان جيرانه المواليون له من الشمال ابن معمر في العيينة ومن الجنوب دهام بن دواس في الرياض.. وكان قد زوج ابنه عبدالعزيز من ابنة أمير العيينة عثمان بن معمر مما يدل على انسجام الأحوال واستقامة الأمور بين البلدين.

أما دهام بن دواس فكان مديناً لمحمد بن سعود الذي شد أزره وناصره أمام كراهية أهل الرياض لدهام ومحاولتهم تنحيته، فبعث له طائفة ثبتوا إمارته فقمعوا الثائرين عليه فاستقر له حكم الرياض".

بقي التهديد الإقليمي المتمثل في حاكم الأحساء وبني خالد سليمان بن محمد؛ ولكن حكام الأحساء يعلمون أن التدخل العسكري المباشر من طرفهم في نجد قد يثير حفيظة ومخاوف حلفاء الإمام محمد بن سعود كقبيلة سبيع، ناهيك أن بني خالد سبق أن أخفقوا في كسر الدرعية وأسوارها عندما حاصروها عام 1133هـ/1720م.

إن التهديدات المحلية والإقليمية والأخطار ستظل محتملة ولكن بعد حسابها ودراستها من الإمام محمد بن سعود؛ وجد أنه بالإمكان التغلب عليها.

نعم إنها الحسابات المصلحية السياسية ودراسة أخطار اتخاذ القرار الإستراتيجي وعواقبه من أجل بقاء الحكم، وهذا شأن الملوك والأمراء ولا غرو في ذلك، إلا أنه من المؤكد أن حساب المصلحة الدينية والتفكير في علة وجود الإنسان في هذا الدنيا كانت من أولويات القائد، فالإمام محمد بن سعود رجل متدين بفطرته. قال صاحب " لمع الشهاب ": ذكر الثقات من

إن السؤال الذي لا نحتمل إجابته: ماذا لو أن الإمام محمد بن سعود لم يؤسس الدولة السعودية الأولى؟! يقول فيليبي: " ويمكن القول هنا وبكل صدق أنه لولا محمد بن سعود لما شهدت الدولة السعودية أيامها المحيدة " .

إن الانقلاب الكبير في جزيرة العرب بهذا التأسيس والدستور الذي قاده الإمام محمد بن سعود تتمثل في مشروع دولة موحدة ناهضة، وأيضاً في تلك الأخلاق والمنظومة الثقافية الإسلامية التي عُرسَت في أجيالنا المتعاقبة.

◀ السمات:

يتمتع الإمام محمد بن سعود بسمات قيادية من أبرزها: التدين، والحلم، والأناة، والرأي الثاقب، والتعاطف، والعطاء، والمبادرة، والإصرار.

ويصف فيلبّي الإمام محمد بن سعود بقوله: " عرفه شعبه بورعه وإنسانيته " أكثر مما عرفه ببسالته وشجاعته، وفي الواقع كان آخر عهده في الحملات القتالية تلك الحملة التي شنّها ضد الرياض في عام 1750م.

لقد تمتع الإمام محمد بن سعود بالشجاعة الأدبية والمادية في آنٍ معاً.

يقول د. العريني: "أما شجاعته وجسارته فإن من أقوى الأدلة عليها إقدامه على الانتقام من المعتدي على زيد برباطة جأش وعزيمه، أما حيطة وحذره فقد برزتا بتخفيه داخل قصر ابن معمر لما قتل زيدا، فنجى الله محمد بن سعود بهذه الحيطة والحذر، ومن مظاهر شجاعته قيادته الجيوش في المراحل الأولى من غزوات الدولة لتوحيد نجد".

◀ العطاء:

إن فعل الخير سنة نبوية مؤكدة ماضية، يثاب فاعلها في الآخرة فضلاً عن سؤدد الدنيا ومحمدها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: 73)،

ثم إن الإسلام قسم الناس إلى ثلاثة أصناف جعل أفضلهم صاحب المعروف، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر: 32).

إن بذل الخير هَيِّنَ على من كان ذا فطرة ذاتية وتنشئة أسرية سخية وكريمة، وهو ما كان يتمتع به محمد ﷺ نفسه قبل النبوة حينما هدأت خديجة - عليها السلام - من روعه بعد نزول الوحي فامتدحته قائلة: "كَلَّا، والله ما يَغْزِيكَ اللهُ أبَدًا؛ إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرَى الضيف وتعين على نوائب الحق".

تمتع الإمام محمد بن سعود بسخاوة النفس والكرم ما جعله في مقام المدح؛ وهكذا هي الإمارة، وهذه هي القيادة، ينقل صاحب لمع الشهاب عن الثقة من المخبرين عن شأن محمد بن سعود أنه كان رجلاً كثير الخيرات والعبادة، وكان أبوه سعود وجده محمد واليين في الدرعية، وهو - أعني محمد - كان كريم الطبيعة، ميسّر الرزق له أملاك كثيرة من نخل وزرع، وله عدد من المواشي. قيل من سخاوته أن كان الرجل يأتيه من البلدان يطلب شيئاً كثيراً لوفاء دين عليه فإذا عرف أنه محق أعطاه إياه، حتى إنه في بعض السنين وفد عليه رجل من أهل بريدة اسمه ناصر بن إبراهيم وكان تاجراً لكنه أفلس ببعض أموال الناس صرفها في مهمات نفسه، وكان الذي عليه أربعة آلاف ذهب، فلما وصل الدرعية، أبدى الأمر لمحمد بن سعود. فأعطاه أربعة آلاف ذهب ولم يبال.

◀ الاقتصاد:

إن من فريدة شخصية الإمام محمد بن سعود أنه قبل تحدي المواجهة مع الفرقاء بل تحمّل الأعباء الاقتصادية المترتبة على ذلك القرار بالرغم من ضعف الحال وأهل الدرعية يعيشون الكفاف، ناهيك عن الأزمات والكوارث الطبيعية التي لا تغيب عن نجد من قلة الأمطار وانتشار الأوبئة أو خراب المحصولات من هجوم الحشرات، كما حدث في عام 1175هـ / 1762م عندما أكل الدبا والجراد جميع زروع نجد. وتعامل الإمام محمد بن سعود مع تلك الأزمات بسياسة اقتصادية كان قوامها ترشيد الإنفاق. يقول كورانسيه: "إن تجاراً نجديين عارفين بأمور الدرعية أخبروه أن الإمام محمد بن سعود كان يطبق سياسة اقتصادية قريبة من التقدير، ومن مظاهرها أنه استبدل الخيل بالبعير، وأمر أن يركب كل ذلول رجلان فكان كل راكب يردف وراءه راكباً آخر ومن هناك اسم: "المردوفة" وقد خفض رزق المحارب وعلف الحيوانات بحيث يحمل الجمل على ظهره مؤونة تكفيه عشرين يوماً، وبفضل هذه التدابير استطاع أن يزيد في عدد مقاتلته من غير زيادة كبيرة في نفقات الدولة.

ويضيف دو كورانسيه إلى ذلك: "أن هذه السياسة الاقتصادية الصارمة كانت تدفع الإمام محمد بن سعود أحياناً إلى استقراض الأموال من الناس باسمه الخاص للإنفاق على بعض الأعمال وتجهيز الغزوات".

ومما لا شك فيه أن الجزيرة العربية تواقه للإصلاح السياسي والديني والاقتصادي والأمن والاستقرار، وتواقه أيضاً للعدالة الاجتماعية.

إن السياسة الاقتصادية للإمام محمد بن سعود قد أسهمت في تحقيق هذا إلى حد كبير.

◀ المواجهة مع القوة الإقليمية:

كان أحد أكبر هواجس الإمام محمد بن سعود عند اتخاذ قرار تأسيس الدولة السعودية الأولى، قوة بني خالد وحلفائهم، فما بالك أن يقع ما لم يكن في الحساب أن يأتي جيشٌ من نجران بقيادة حسن المكرمي، ويحدث الانكسار ثم يلحقه الحصار؛ فلا شك أنها تحدٌ ومصيبة !!.

يقول ابن بشر: " وفي هذه السنة في ربيع الآخر كانت وقعة الحائر المشهورة المسماة وقعت النجارين، والحائر هو المعروف بحائر سبيع بين الخرج والرياض، وسبب ذلك أن العجمان لما قُتِلَ وأُسِرَ منهم من أُسِر، جَدُّوا في المسير إلى نجران لأخذ الثَّأر، واستنقاذ الأسرى، فأتوا إلى صاحب نجران المسمى بالسيد حسن بن هبة الله، فشكوا إليه ولسائر قبائلهم المعروفين بالوعلة وسائر يام، واستنجدوهم واستصرخوهم على المسير معهم على المسلمين، فأجابوهم إلى ذلك، فأقبل منهم جموع عظيمة، فوصلوا الحائر المذكور، وحصروا أهله ومن كان عندهم من المسلمين (الذين أرسلهم عبدالعزيز إليهم لما علم بمسيرهم)، فلما تحقق عبدالعزيز خبرهم استنفر إليهم جميع المسلمين، فصار إليهم وهم على الحائر، فوقع بينهم قتال شديد، فأراد الله الكسرة على جموع المسلمين، فولَّوا مهزومين.

ثم إن محمد بن سعود أرسل إلى صاحب نجران، وقد وصل ناحية الرياض، فاسترضوه

وأطلقوا له الأسرى الذين عندهم، وأطلق هو الأسرى الذين عنده، ورجع إلى وطنه.

وكان صاحب نجران قد وعد عريعر يُوافيه بجيوشه وجنوده، فاستفزع عريعر جميع بني خالد وجميع أهل نجد، سوى العارض وشقرا وضرماء، وسار بخيله وجنوده قاصداً الدرعية، وثنى الله عزم صاحب نجران، فأخلف الميعاد، ورحل هو وقومه ورجعوا إلى أوطانهم، وسار عريعر وجميع من معه، وأطبقت نجد معه، وأول من أجاب لداعيه ولبي لرسوله وساعيه: دهام بن دواس وأهل منفوحة، وتتابع أهل نجد في نقض العهد، ثم إن عريعر استشار أعوانه من أهل نجد في المنزل الذي ينزل فيه من الدرعية يسع العربان وأهل البلدان، فاستقرّ رأيهم أن ينزل بين قري قصير وقري عمران، فوجلت قلوب أهل الدرعية من كيدِه وكثرة جنوده ومدافعه، فأزعجهم ذلك وبهرت عقولهم ولجؤوا إلى الله في كشف هذه المهمة والفتنة المدلّهمة، فلما نزل بذلك المكان وقرب المدافع والآلات إلى قرب الجدران والبروج، فرماها رمياً هائلاً فلم ينقضّ منها لبنة واحدة، فزال الرعب والخوف عن أهل الدرعية فخرجوا إليهم خارج السور، فأقبلت جنود عريعر تريد الدخول من أعلى الباطن، فسابقهم عبدالعزيز وأهل الدرعية، وقاتلوهم أشد القتال، وأخرجوهم منها قسراً، وقتلوا منهم رجالاً، وأخذوا منهم فرساً، وأقاموا أياماً كل يوم قتال، فخاف قوم عريعر وداخلهم الرعب والفشل وهمّوا بالرحيل وندموا إذ لم يحصلوا على طائل.

يقول فيلبلي: "كانت مواجهة حاكم نجران الضربة القوية التي حدثت له في حياته. وربما كان الملك الطاعن في السن قد شعر بالقلق على مستقبل مملكته، علماً بأن الهزائم اللاحقة التي تعرضت لها قبيلة بني خالد طمأننته على صحته وعافية القوة العسكرية الداعمة لقضيته".

الزعماء التاريخيون يقرؤون المستقبل استشرافاً، ويؤهل القائد قادة، ويهيئ الظروف لنجاح خليفته الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود، كي يقطع دابر الخلاف والتنازع على الحكم، ويطلعه على أسرار الدهاء التي لا تقال لأي أحد، كما يحدد له العدو والصديق والمناقضين حسبما يظن، ووصاياهم في كيفية التعامل معهم، ثم يغادر بهدوء لا سيما من يموت عن عمرٍ متقدم حيث يمنحه الله فرصة التدبّر والتدبير.

في أمره والتخلي له شيئاً فشيئاً عن سياسة البلاد، وأول ما يتخلى له عن قيادة الجيوش، ولا يخلو ذلك من حكمة؛ لأنه يمهّد الطريق أمام ولي العهد للحكم".

◀ إياك والصخر:

قلت: إن الزعيم الحكيم ذا الشبية له قدرة على قراءة السنن الشرعية والكونية تلك التي تحفظ القواعد الكلية لبقاء الوطن وتنميته، ويبوح بها في آخر عمره في وصايا مقتضبة ولكنها ثقيلة من أجل أن يحملها القائد الخلف أمانة من بعده.

قال الجريجيري: " استدعى محمد بن سعود، وهو في مرض الموت ولديه عبدالعزيز وعبدالله إلى حجرته، فقال لعبدالعزيز: إنه اختاره خلفاً له، وكلف الثاني القيام ببعض الأعمال المهمة ونصحهما، وطلب منهما أن يكونا رحيمين بالضعفاء والمغلوبين.

ثم أوصاهما أن يجتهدا في الغزوات والفتوح، ولكن في حكمةٍ وحذر، وقال لهما كلمته المشهورة: "لا تفجّروا الصخر!". وهذه الوصية إنما كانت تعني ضرورة الامتناع عن استفزاز الجيران الأقوياء، وخصوصاً الدولة العثمانية، فهذه الدولة ضعيفة، في الظاهر، ولكن متى تحداها الأعداء وأثاروها، تفجرت قواها وسحقت خصومها.

لقد أصبحت وصايا الأئمة والملوك في أواخر عهودهم تقاليد راسخة في أسرة آل سعود، ومن تلك الوصايا الخالدة وصية الملك المجدد عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود لابنه وولي عهده سعود، وقد جاء فيها: "نفهم أننا نحن والناس جميعاً ما نعرّض أحداً ولا نذلّ أحداً، إنما المعز والمذل هو الله - سبحانه وتعالى - ومن التجأ إليه نجا، ومن اعتزّ بغيره وقع وهلك. وينبغي أن تعقد نيتك على ثلاثة أمور:

أولها: نية صالحة، وعزم على أن تكون حياتك، وأن يكون ديدنك إعلاء كلمة التوحيد، ونصر دين الله، وينبغي أن تتخذ لنفسك أوقاتاً خاصة لعبادة الله، والتفرغ بين يديه في أوقات فراغك، اعبداً الله في الرخاء تجده في الشدة، وعليك بالحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ثانيها: عليك أن تجد وتجتهد في النظر في شؤون الذين سيوليك الله أمرهم بالنصح سراً وعلانيةً، والعدل في الحب والبغض، وتحكيم الشريعة في الدقيق والجليل، والقيام بخدمتها باطناً وظاهراً.

وثالثها: عليك أن تتنظر في أمر المسلمين عامةً، وفي أمر أسرتك خاصةً، اجعل كبيرهم والداً، ومتوسطهم أخاً، وصغيرهم ولداً. وهن نفسك لرضاهم، وامحُ زلتهم، وأقلِ عثرتهم وانصح لهم. واقض لوازمهم بقدر إمكانك. فإذا فهمت وصيتي هذه، ولازمت الصدق والإخلاص في العلم فأبشر بالخير وأوصيك بعلماء المسلمين خيراً، احرص على توقيهرهم ومجالستهم، وأخذ نصيحتهم، واحرص على تعليم العلم؛ لأن الناس ليسوا بشيء إلا بالله، ثم بالعلم، ومعرفة العقيدة، احفظ الله بحفظك".

◀ الوفاة:

توفي الإمام محمد بن سعود في عام 1179هـ/1765م وقد أدّى الأمانة وأسس دولة راسخة.
إن فقد الأب المؤسس مؤلم، فهو ذاكرة الوطن والدولة والكفاح، بل هو ذاكرة أهل الدرعية،
وقد أمدّ الله في عمره حتى اطمأن على المسيرة، وقد فارق الحياة ويقينه أن النصر الشامل
والنهائي مسألة وقت، ولا سيما أن ابنه الإمام الجديد عبدالعزيز بن محمد قد اجتاز مرحلة
التأهل بجدارة وقد أصبح سرّ أبيه، أحد فرسان الجزيرة التي لن تنسى مآثره، وقد فتح الله له
ولقومه البلدان لا سيما بعد سقوط الرياض.

يقول ابن غنّام: " وفي ربيع الأول أيضاً من هذه السنة (1179هـ) اختار الله الإمام محمد بن سعود إلى جواره، وكان قد ولى بعده ابنه عبدالعزيز إماماً للمسلمين فبايعه الناس على ذلك: خاصهم وعامهم، حضرهم وبدوهم، دانيهم وقاصيهم".

ويقول فيليب: " وهكذا انتهت آخر حرب من حروب محمد بن سعود الذي وُوري جثمانه الثرى (في صيف عام 1765م) بعد عمر طويل مشرّف في مقبرة الدرعية التي احتوت على قبور آبائه وأجداده.. حظي محمد بن سعود مرتين باستسلام ألد أعدائه أمير الرياض "دهام" ومات وهو على يقين بأنه تمت تسوية أكبر مشكلات عصره بشكل نهائى " .

وإن سألتني ما أعظم إرث تركه لنا الآباء المؤسسون وعلى رأسهم الإمام محمد بن سعود؛ قللت إنه العقد الاجتماعي السياسي السعودي وروحه الكامنة فينا، تلك القواعد عميقة الجذور، تلك التي زرعها الآباء والأجداد، فهي بوصلتنا ورؤيتنا للحياة، وهي التي تعرّف العدو والصديق. إنها بكل بساطة تحيِّب عن أسئلتنا الكبرى عبر الأجيال.

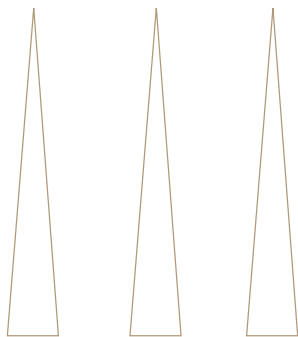
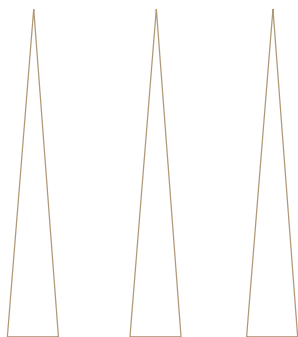
إن تلك القواعد تحميها من الشطط والتعدي والعدوان عندما نكون أقوىاء، كما أنها تثبت فينا روح الأمل عندما نكون ضعفاء، إنها شعلة ووقود في كل الأحوال مهما تقلبت ظروف الزمان.

يقول مانجان: " إذا كان الرعب الذي تنشره اليوم جيوش محمد علي يضمن خضوع المهزومين فإنه مما لا شك فيه أنهم بعد موت ذلك الأمير سيستفيدون من الحماسة الحربية التي هي الميزة الطبيعية لكل الأجيال الجديدة، وسيستفيدون منها لاستعادة مملكة كانوا يستطيعون الدفاع عنها أمداً طويلاً".

قلت: ليت مانجان يستطيع أن يرى صدق توقعاته واستشرافه، فقد تعودنا أن ننكسر ثم نقوم، ثم ننكسر ونقوم، وأخيراً مع الملك الصالح عبدالعزيز بن عبدالرحمن إنها تلك الروح التي لا تنطفئ جذوتها بعد أن أشعلها الآباء المؤسسون عام 1139هـ/1727م.

المصادر والمراجع:

- ابن عثمان، عنوان المجد في تاريخ نجد، حققه وعلق عليه: محمد بن ناصر الشثري، دار الحبيب ، الرياض ، الطبعة الأولى ، 1420هـ.
- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، حقق نصوصه وعلق عليه: عبدالله محمد الدرويش دار بيروت، دمشق، الطبعة الأولى، 1425هـ.
- ابن خميس، عبدالله ، الدرعية العاصمة الأولى ، الطبعة الأولى 1402هـ.
- ابن خميس، عبدالله ، الدرعية معالم وأطلال ، مجلة الحرس الوطني ، العدد رقم (33).
- ابن غنّام، حسين، حرره وحققه ناصر الدين الأسد، تاريخ نجد، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، 1415هـ، ص86.
- ابن معمر، عبدالمحسن ، إمارة العيينة وتاريخ آل معمر ، الطبعة الأولى ، 1416هـ.
- آل الشيخ، عبدالرحمن بن حسن، المقامات ، دراسة وتحقيق عبدالله المطلوع ، داره الملك عبدالعزيز 1426هـ.
- آل سعود، خادام الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز ، الأسس التاريخية والفكرية للدولة السعودية ، داره الملك عبدالعزيز، الرياض ، الطبعة بدون ، 1433هـ.
- بوركهارت، جون لويس ، ملاحظات على البدو والوهابيين الانتشار العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 2005م.
- الحزيم، يوسف بن عثمان ، أركان القيادة بين التراث الإسلامي والتجربة الأمريكية ، دار السلام ، الرياض ، الطبعة بدون ، 1429هـ.
- الحزيم، يوسف بن عثمان ، أفكار في التنمية السياسية ، مركز ابن الأزرق ، بيروت.
- الحمد، تركي ، ويبقى التاريخ مفتوحاً ، دار الساقى ، بيروت ، الطبعة الأولى 1432هـ.
- خزل، الشيخ حسين خلف ، تاريخ الجزيرة العربية ، مطابع دار الكتب ، بيروت ، 1388هـ.
- الدخيل، خالد ، الوهابية بين الشرك وتصدد القبيلة ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 2013م.
- دو كورانسيه، لويس الكسندر ، راجع الترجمة وقدم لها وعلق عليها محمد البقاعي ، تاريخ الوهابيين ، داره الملك عبدالعزيز ، الرياض ، 1426هـ.
- الرويشد، عبدالرحمن بن سليمان ، الجداول الأسرية لسلالات العائلة المالكة السعودية ، دار النشيل للنشر ، الرياض ، الطبعة الأولى.
- الريكي، حسن بن جمال ، درسه وحققه وعلق عليه أ. عبدالله الصالح العثيمين ، لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ، داره الملك عبدالعزيز ، الرياض ، 1426هـ.
- عبدالرحيم، عبدالرحيم بن عبدالرحمن ، الدولة السعودية الأولى ، دار الكتاب الجامعي ، القاهرة ، الطبعة السادسة ، 1418هـ.
- العثيمين، عبدالله ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ، 1404هـ.
- العجلاني، منير ، تاريخ البلاد العربية السعودية، الجزء الأول: الدولة السعودية الأولى ، الطبعة الثانية ، 1413هـ.
- العريني، عبدالرحمن ، الإمام محمد بن سعود وجهوده في تأسيس الدولة السعودية الأولى ، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية ، الرياض ، 1419هـ.
- العيسى، محمد الفهد ، الدرعية قاعدة الدولة السعودية الأولى ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، الطبعة الأولى ، 1415هـ.
- غرين، روبرت ، ترجمة ابتسام الخضراء ، قوانين الطبيعة البشرية . مكتبة العبيكان – الرياض، الطبعة الثانية ، 1442هـ.
- فاسيلييف، اليكسي ، تاريخ العربية السعودية ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 2000م.
- فيس، وليام ، الدرعية والدولة السعودية الأولى ، مؤسسة التراث ، الرياض ، 1419هـ.
- فيليبي، هاري سانت جون ، العربية السعودية ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، الطبعة الأولى ، 1422هـ.
- الكبيّر، أحمد ، القيادة الأخلاقية ، الطبعة الأولى.
- لوبون، غوستاف، الجماعات أفكارها ومعتقداتها ، دار بيبليون ، باريس ، 2006م.
- مانجان، فليكس ، تاريخ الدولة السعودية الأولى وحملات علي على الجزيرة العربية ، داره الملك عبدالعزيز ، الطبعة الأولى ، 1424هـ.





جودة الحياة في الدولة السعودية الأولى الدرعية العاصمة نموذجاً

د. بدران بن عبدالرحمن الحنيحن



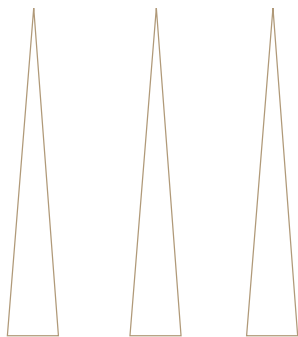
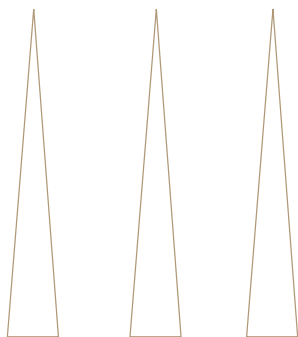




في ثنايا صفحات تاريخ المملكة العربية السعودية الحافل عدداً من الأحداث التي كانت بمنزلة تحولات مفصلية تطلبت ظروف المرحلة في حينها، منذ أن وطئت الدرعية أقدام الأمير مانع المريدي قبل 600 عام تقريباً وتأسيسه إمارته فيها، ومروراً بإعلان تأسيس الدولة السعودية الأولى على يد الإمام محمد بن سعود عام 1139هـ / 1727م، ومن ثم نجاح الإمام تركي بن عبدالله (الجد الثالث) في إنعاش مشروع الدولة الحلم مرةً أخرى من خلال تأسيس الدولة السعودية الثانية عام 1240هـ / 1824م. ويستمرّ الأمل برغم الصعوبات والتعثر، وتكرر المحاولة مرةً أخرى بدخول المؤسس الملك عبدالعزيز الرياض عام 1319هـ / 1902م، ليتحقق الحلم الذي طالما سعى إليه أجداده بإعلان بدء مشروع الوحدة العظيم للمملكة العربية السعودية عام 1351هـ / 1932م، ومن حينها تدرّجت المملكة في سُلّم التطور والازدهار في جميع المجالات، ورفل الناس في النعم والخيرات والأمن والأمان بعد معاناة الخوف والجوع، والظلم والجور، والتفرّق والتشرذم. وتسير المملكة اليوم بقيادة خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز آل سعود وولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان - حفظهما الله - بخطى ثابتة نحو تحقيق أجود أساليب العيش لمواطنيها والمقيمين على أرضها، ولذلك ظهر فيها اليوم مصطلح (جودة الحياة) بجلاء تزامناً مع إعلان رؤية المملكة 2030، وأضحى واضحاً وضوحاً كاملاً في عام 2018، وتحدّدت معاييرها في تعزيز الأنشطة والمظاهر الثقافية والاجتماعية المتنوعة. ويتردّد سؤال في ذهن المتأمل في تاريخ الدولة السعودية الأولى - وتحديدًا في الدرعية العاصمة في مرحلة ما بعد الأمن والسلام الذي بسط في شبه الجزيرة العربية لأول مرة بعد القرون الماضية - هل عرفت الدولة حينذاك هذا المعنى الاصطلاحي (جودة الحياة)؟ وما أهميته في ذلك الزمان؟ وكيف يجري تقويم جودة الحياة في الدرعية بمعايير تلك الأزمنة في عهد الدولة السعودية الأولى؟

لمّا أصبحت الدرعية عاصمة للدولة السعودية الأولى ازدادت أعداد الوافدين عليها، فأثر ذلك كثيرًا في تركيبة المجتمع الحديث، وتطلّب الأمر انتقال مركز القوة من حيّ غصيبة إلى سمحان في مدة قصيرة، ثم إلى حيّ الطريف حيث مساكن الأسرة السعودية المالكة ومقرّ الحكم، فقد كانت الأسرة جميعها في حيّ الطريف الذي عدّ بذلك الحيّ الأول والأبرز في الدرعية، وقد شهد الحيّ نهضةً معماريةً ضخمةً تمثلت في بناء القصور والمساكن العامة والمساجد والأسوار، وكان من أشهر دلائل تلك النهضة المعمارية قصر سلوى الذي يعدّ من أهم القصور التاريخية والمعالم الحضارية في شبه الجزيرة العربية. وقصر عبدالله بن سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود بن محمد بن مقرن، آخر أئمة الدولة السعودية، وقصور الأمراء سعد بن سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود بن محمد، وعمر بن سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود بن محمد، ومشاري بن سعود بن محمد، وما فيها من تطوّر عمراني يفوق الوصف في البناء

إنّ قصة الدرعية يجب أن تُروى وتُبرز، وخصوصاً من المؤرّخين والآثاريين؛ بالتنقيب عنها وتحليل تلك الأحداث التاريخية التي مرّت بأقدم موطن ثابت للأسرة السعودية المالكة منذ 600 عام، وبالكشف عن أبرز مظاهر جودة الحياة فيها، وما وصلت إليه مدينة الدرعية من ازدهار حقّق معنى جودة الحياة بمفهومه العميق. وقد وصف هذا العمق المؤرخ عثمان ابن بشر في قوله: "وكانت هذه البلدة أقوى البلاد، وقوة أهلها وكثرة رجالهم وأموالهم لا يحصيه التعداد، فلو ذهبت أُعدّد أحوالهم وإقبالهم فيها وإدبارهم في كتائب الخيل والنجايب العمانية وما يدخل على أهلها من أحمال الأموال من سائر الأجناس التي لهم مع المسافرين منهم، ومن أهل الأقطار، لم يسعه كتاب ولرأيت العجب العجائب".





رؤية الإمام محمد بن سعود

د. محمد بن علي عبداللطيف







تأسست مدينة الدرعية في منتصف القرن العاشر الهجري على يد الأمير مانع بن ربيعة المريدي الذي انتقل من الدرعية في شرق الجزيرة العربية التي عاش فيها آباؤه وأجداده قروناً إلى وسط الجزيرة العربية حيث أسس الدرعية الثانية على ضاف وادي حنيفة. وبانتقال مانع المريدي الدرعي إلى وسط الجزيرة العربية أصبح أحد زعماء المنطقة الرئيسيين وكذلك أصبح أحد زعماء قبيلة بني حنيفة البارزين. بتأسيسه للدرعية، أصبحت مركزاً مهماً على طريق التجارة والحج المار بالمنطقة والذي اتخذ من وادي حنيفة مساراً له.

اتبع الأمير مانع المريدي منهجاً جديداً في الحكم لم تعرفه المنطقة من قبل، وذلك بالاعتماد على أسلوب دولة المدينة (the City State) حيث أصبحت الدرعية مدينة ذات استقلال وسيادة واعتماد على الموارد الذاتية، وبعد نحو 280 عاماً من تأسيسها، وصل إلى حكمها أحد أحفاد الأمير مانع المريدي، وهو الإمام محمد بن سعود مؤسس الدولة السعودية الأولى، وذلك عام 1139هـ/1727م واستطاع تحويل الدرعية من دولة المدينة التي تحكم نطاقها الضيق إلى دولة واسعة أطلق عليها الدولة السعودية ولتضم كل أبناء الجزيرة العربية ولتغرس في نفوس أبنائها الوحدة والعزة.

يعد تأسيس الدولة السعودية الأولى إيذاناً بعصر جديد في الجزيرة العربية لم تعرفه منذ قرون طويلة، ومع اعتلاء الإمام محمد بن سعود ووصوله للحكم بدأ ذلك العصر برؤية واضحة ورأسخة اعتمدت على ما قبلها من التجارب، ووظفتها في سبيل بناء هذا الصرح العظيم.

﴿ الجذور: ﴾

حينما نعود إلى جذور الدولة السعودية الأولى فإننا سنجدتها تقوم على عدد من الركائز، منها الأرض، ورمزية الأرض تتمثل في وادي حنيفة، ومنها الأسرة المالكة آل سعود وقياداتها وحكامها وانتسابهم لقبيلة بني حنيفة.

ارتبط وادي حنيفة بأحداث بارزة في تاريخه خاصة كونه يتميز ببيئة طبيعية فريدة بترتبه الخصبة ومياهه العذبة، واختيار عدد من الحضارات القديمة الاستقرار به فقد قامت على ضفافه طسم وجديس، وعندما بدأت قبيلة بني حنيفة الانتقال إلى وسط الجزيرة العربية وقدم أحد زعمائها وهو عبيد بن ثعلبة مع قومه من غرب الجزيرة العربية متنقلاً بين المواقع باحثاً عن موطن استقرار له ولعشيرته، وحين وصل إلى منطقة وادي حنيفة ودرس الأحوال والأوضاع وجد ضالته على ضفاف الوادي فاختر حَجراً لتكون قاعدة ومستقراً له ولأسرته. إن قصة عبيد بن ثعلبة تعطي بعداً كبيراً لأساس هذه الدولة السعودية وعراقتها وتبين العمق التاريخي والحضاري للدولة السعودية وللأسرة المالكة آل سعود.

ومن الواضح أن الإمام محمد بن سعود، إضافةً إلى كونه قائداً سياسياً فذاً، فقد كان حاكماً حكيماً نجح بشكل كبير في حسن إدارة الدولة منذ تأسيسها حتى أصبح مثلاً يحتذى في طريقته وأسلوبه في الحكم.

ومن دلائل الازدهار الحضاري للدولة أن الحي الرئيس في عهد الدرعية في عهد الإمام محمد بن سعود ازدحم بساكنيه، وهذا ما جعل الإمام محمد يرى ضرورة التوسع الحضري العمراني ببناء حي جديد في هضبة سمحان المقابلة لغصيبة من الجهة الجنوبية وسماء الطرفية. هذا يبين الرؤية الخاصة للإمام محمد بن سعود ورغبته في إثبات أن مقومات الدولة قائمة ومستمرة، وفي امتداد وازدياد. عمل الإمام محمد بن سعود للحفاظ على الاستقرار في المنطقة، تمثل ذلك في إعادة الاستقرار إلى الرياض التي استنجد حاكمها به فأرسل حملة أعادت الأمور إلى نصابها.

تبني الإمام محمد بن سعود الدعوة الإصلاحية، وعمل لحمايتها ودعم طلبه العلم وجعل الدرعية منارة علمية وثقافية في المنطقة.

كانت انطلاقة التأسيس عام 1139هـ / 1727م بمنزلة اللبنة الأولى لهذا الكيان العظيم الذي مر بثلاثة أدوار وما زال باقياً ومستمراً لأنه قام على أساس متين ومبادئ عظيمة راسخة ورؤية واضحة. إن التجربة السعودية تجربة خالدة قل أن تجد لها مثيلاً في التاريخ.

يعد الإمام محمد بن سعود من أعظم مؤسسي الدول في العصر الحديث، فقد وضع أساس دولة شارف عمرها على بلوغ 300 عام، فقد وضع الإمام محمد بن سعود أسس قيام أعظم دولة عرفتها الجزيرة العربية منذ أكثر من ألف عام، حيث كان ذا رؤية عظيمة واستشراف باهر للمستقبل؛ فقد استطاع أن يؤسس الدولة على قاعدة صلبة، وأن يصمد ويعمل من أجل إقامة الدولة واستمراريتها، واستطاع خلال مدة حكمه التي امتدت 40 عاماً أن يحول المنطقة

من إمارات متفرقة متشتتة إلى دولة واحدة، واستطاع استيعاب الجميع وإدخالهم في الدولة الجديدة، واختار الإمام محمد بن سعود الدرعية لتكون عاصمة للدولة وقام بتحصينها وتأمينها لتكون أقوى المدن ونقطة التقاء مهمة في طريق الحاج والتجارة.

تولى الإمام محمد بن سعود في فترة عصيبة، فقد كانت الجزيرة العربية بأسرها تعاني منذ ألف عام الإهمال والتشتت والفرقة. درس الإمام محمد بن سعود الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتعرف على أحوالها ورأى ضرورة التغيير والبدء ورأى أنه قادر على قيادة التغيير وذلك لكونه يملك مقومات ذلك النجاح.

منذ الأيام الأولى لاستلامه الحكم وتأسيس الدولة السعودية، رأى الإمام محمد ضرورة تثبيت الأوضاع في المنطقة خاصة بعد حادثة العيينة وما جرى فيها من محاولة للقضاء عليه، وهنا يتبين لنا حذر الإمام محمد بن سعود ونباهته وحرصه على سلامة الدولة واطمئنان المواطنين أن الأمور في نصابها.

حرص الإمام محمد بن سعود على الاستقرار الاقتصادي للدولة منذ الأيام الأولى لتوليته الحكم، فقد كانت الدرعية من أبرز محطات التوقف في طريق الحج القادم من شرق الجزيرة العربية، وكان دور الإمام محمد أن يجعل الدرعية أهم محطة في محطات هذا الطريق الذي يمر به آلاف الحجاج. أراد الإمام محمد التأكيد على أن الدرعية هي الأبرز في هذا الطريق مما جعله يهتم به ويحرص على فرض الأمن والأمان في ربوعه.

ومن الأمور التي بينت رؤية الإمام محمد بن سعود من الناحية الاقتصادية هو تطويره للأنظمة الاقتصادية في الدولة وتأسيس بيت المال الذي كان بمنزلة وزارة المالية في ذلك الوقت. وحرصه على دعم المواطنين وتأسيس برامج دعم لطلبة العلم والمحتاجين في الدرعية وغيرها من المدن التي دخلت في وحدة الدولة، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها قصته مع التاجر من مما يدل على اهتمامه باقتصاد الدولة وتركيزه على فئة التجار، وفيما يأتي نصها: "من سخاوته أن كان الرجل يأتيه من البلدان يطلب منه شيئاً كثيراً لوفاء دين عليه. فإذا عرف أنه محق أعطاه إياه، حتى إن بعض السنين وفد عليه رجل من أهل بريدة اسمه ناصر بن إبراهيم، وكان تاجراً، لكنه أفلس ببعض أموال الناس صرفها في مهمات نفسه. وكان الذي عليه أربعة آلاف ذهباً. فلما وصل الدرعية أبدى الأمر لمحمد بن سعود فأعطاه أربعة آلاف ذهباً، ولم يُبال. فقال له أولاده: أتعطي رجلاً لا تعرفه إلا بالاسم هذا المبلغ الكبير؟ فقال: نعم. يا أولادي الدنيا إنما جعلت لكرامة بني آدم. فالخير منهم ذو الشرف إذا ذل يبغي إعانته بما يمكن لئلا يزدريه السفل. وناصر بن إبراهيم قد سمعتم به أنه رجل كان ذا مال وشرف. وقد اضطره الزمان. فعلى الناس الكرام إبداء الخير لمثله"

امتدت رؤية الإمام محمد بن سعود إلى الناحية الاجتماعية، فقد حرص على مساعدة أبناء المجتمع وحثهم على الزواج وحث الناس على تزويج بناتهم، وهذا دليل على حرصه على وحدة المجتمع وتماسكه ورؤيته المستقبلية للدولة وشعبها: "هذا والمعهود من محمد بن سعود أن ليس أحد يراه شاباً من أهل بلده وجماعته غير متزوج إلا سأل عن حاله. فإذا قيل له: لا يمكن

من النقاط الرئيسة في رؤية الإمام محمد بن سعود هي أنه بعد توحيد المناطق ودخولها في وحدة الدولة أنه يبقى على أمراء تلك المدن أو المناطق ولا يستبدلهم بغيرهم وذلك استمالة لهم ودعمًا في مسألة الإيمان بأهمية الوحدة.

يتبين لنا من خلال سرد جانب من فترة حكم الإمام محمد بن سعود وتأسيسه للدولة عام 1727، رؤيته الملهمة وقدرته الكبيرة على القيادة والحكم الرشيد ووضعه لأسس قوية للدولة مازالت قائمة وقوية حتى اليوم.

المصادر والمراجع:

- آل سعود، فيصل بن مشعل بن سعود بن عبدالعزيز. رسائل أئمة دعوة التوحيد. الرياض: المؤلف، 1422هـ/2001م.
- ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد في تاريخ نجد. تحقيق عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ. الرياض: دار الملك عبدالعزيز، 1402هـ/1982م.
- ابن خميس، عبدالله بن محمد. الدرعية. الرياض: د. ن، 1402هـ/1982م.
- _____، معجم اليمامة. الرياض: المؤلف، 1400هـ/1980م.
- ابن عيسى، إبراهيم بن صالح. تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد. الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، 1419هـ/1999م.
- ابن غنام، حسين بن أبي بكر بن غنام. تاريخ ابن غنام. تحقيق سليمان بن صالح الخراشي. (الرياض: دار الثلوثة، 1431هـ/2010م.
- الأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية. الرياض: دار الملك عبدالعزيز، 1421هـ/2000م.
- البدراني، فائز بن موسى، وابن عساكر، راشد بن محمد. نسب آل سعود. الرياض: دار الملك عبدالعزيز، 1433هـ.
- البسام، عبدالله بن عبدالرحمن. علماء نجد في ثمانية قرون، ج1. الرياض: دار العاصمة، 1419هـ.
- الجاسر، حمد. "المرأة في حياة إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب". في بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ج1، 188-164. الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1403هـ/1983م.
- الحربي، دلال مخلص. نساء شهيرات من نجد. الرياض: دار الملك عبدالعزيز، 1419هـ/1999م.
- الدامخ، فهد عبدالعزيز. "تاريخ منطقة الرياض منذ قيام إمارة الدرعية حتى قيام الدولة السعودية الأولى (850-1157هـ/1446-1744م)". في منطقة الرياض دراسة تاريخية وجغرافية واجتماعية، ج3، 7-93. الرياض: إمارة منطقة الرياض، 1419هـ.
- كورانسبي، لويس ألكسندر أوليفيه. تاريخ الوهابيين منذ نشأتهم حتى عام 1809م. ترجمة محمد خير البقاعي وإبراهيم يوسف البلوي. الرياض: دار الملك عبدالعزيز، 1426هـ.
- الرويشد، عبدالرحمن بن سليمان. آثار الدرعية نشأة بيت وتاريخ دولة. مجلة الدرعية مج13، ع 49-50 (ربيع الأول-جمادى الآخرة 1431هـ/مارس-يونيو 2010).
- _____، الجداول الأسرية لسلالات العائلة المالكة السعودية. الرياض: دار الشبل، 1431هـ/2012م.
- الريكي، حسن بن جمال. لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب. تحقيق وتعليق عبدالله الصالح العثيمين. الرياض: دار الملك عبدالعزيز، 1426هـ/2005م.
- السماري، فهد بن عبدالله. أهل العوجا. الرياض: دار الملك عبدالعزيز، 1431هـ.
- العاصمي، عبدالرحمن (محرر). الدرر السنية في الأجوبة النجدية، مج 16. د. م. د. ن، 1420هـ/1999م.
- العثيمين، عبدالله الصالح. الشيخ محمد بن عبد الوهاب حياته وفكره. الرياض: دار العلوم، د. ت.
- العجلان، عبدالله بن محمد. "الدولة السعودية والدعوة الإصلاحية". في المملكة العربية السعودية في مئة عام بحوث ودراسات، مج2، 109-200. الرياض: دار الملك عبدالعزيز، 1428هـ/2007م.
- العجلاني، منير. تاريخ البلاد العربية السعودية، ج1، ق1. الرياض: دار الشبل، 1413هـ/1993م.
- _____، تاريخ البلاد العربية السعودية، ج5. الرياض: دار الشبل، 1410هـ/1990م.
- العريني، عبدالرحمن بن علي. "بدء الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته وانتقاله من حريملاء إلى العيينة ثم الدرعية دراسة تاريخية مقارنة". مجلة العلوم العربية والإنسانية: جامعة القصيم مج 10، ع 3 (رجب 1438هـ/مارس 2017م): 1647-1710.
- _____، الإمام محمد بن سعود وجهوده في تأسيس الدولة السعودية الأولى. الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، 1419هـ/1999م.
- العوسجي، محمد بن حمد بن عباد. تاريخ ابن عباد. تحقيق عبدالله بن يوسف الشبل. الرياض، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، 1419هـ/1999م.
- العيسى، مي عبدالعزيز. الحياة العلمية في نجد منذ قيام دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحتى نهاية الدولة السعودية الأولى. الرياض: د. م، 1418هـ.
- الفاخري، محمد بن عمر. تاريخ الفاخري. الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، 1419هـ/1999م.
- فيسي، وليام. الدرعية والدولة السعودية الأولى. الرياض: مؤسسة التراث، 1999م.
- فيليبي، هاري سانت جون. الذكرى العربية للمملكة العربية السعودية. تعريب عباس سيد أحمد. مراجعة عبدالله المنيف. الرياض: مكتبة العبيكان، 1424هـ/2003م.
- _____، العربية السعودية. تعريب عاطف فالح يوسف. مراجعة فهد السماري وآخرين. الرياض: مكتبة العبيكان، 1422هـ/2002م.
- مانجان، فيليكس. تاريخ الدولة السعودية الأولى وحملات محمد علي على الجزيرة العربية. ترجمة وتعليق محمد خير محمود البقاعي. الرياض: دار الملك عبدالعزيز، 1424هـ.
- المطوع، عبدالله بن محمد. "التحولات السياسية والاجتماعية في الدرعية (850-1157هـ/1446-1744م)". مجلة جامعة الملك سعود- الآداب مج 16، ع 2 (1424هـ/2004م): 409-441.
- _____، مجتمع الدرعية في عهد الدولة السعودية الأولى. الرياض: الجمعية التاريخية السعودية، 1424هـ/2003م.
- هاريفان، بيتر. البجيرى قلب الدعوة. مراجعة فهد السماري وناصر الجهيمي. الرياض: الهيئة العليا لتطوير الرياض، 1436هـ.



دور الإمام محمد بن سعود في تأسيس الدولة السعودية (1139-1179هـ / 1727-1765م)

أ.د. عبدالرحمن بن سعد العرابي







شكل العام 1139هـ/1727م نقطة تحول مفصلية في تاريخ الدرعية فقد كانت الدرعية آنذاك حاضرة من حواضر إقليم اليمامة وطبيعة حكمها عرفاً كان سائداً في الإقليم فيما يمكن أن نسميه بـ (المدينة الدولة) أو (الإمارة الدولة (City-State)) وهو نوع من الحكم ساد في مناطق عدة من العالم وعبر أزمنة تاريخية مختلفة، فقد عرفته أوروبا في (المدن الدولة) الإيطالية قبل توحيد إيطاليا في القرن التاسع عشر الميلادي مثل البندقية وجنوة وكانتا تسميان جمهوريتان ولهما نفوذ كبير في حوض البحر الأبيض المتوسط، وكانتا تسيطران على مواني كبرى فيه كما كانتا ذواتي نفوذ في نقل تجارة الشرق المارة عبر الموانيء المصرية إلى أوروبا إبان العصور الوسطى وبدايات التاريخ الحديث عند نهاية القرن الخامس عشر الميلادي بعد اكتشاف البرتغاليون والإسبان لطرق تجارية جديدة غير الطرق التقليدية والتي كانت تسيطر عليها ممالك إسلامية وتجار مسلمون .

كما عرفت الحضارة الإغريقية القديمة ذلك النوع من الحكم (المدينة الدولة) في كثير من مدنها الكبرى مثل أثينا واسبرطة وكورنثا وسرقوسة وأرغوس، وكان لكل واحدة منهن نفوذ سياسي وحضاري كبير لا زال حتى يومنا هذا ذا حضور في الثقافة الأوروبية.

كان حكم الدرعية في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي يتم عرفاً تتناقله أسرتا آل مقرن وأبناء عمومته آل وطبان وكلاهما من المردة من بني حنيفة إحدى أكبر القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية. وكان تولي الحكم في الدرعية وراثياً منذ تأسيسها على يد الجد الأكبر الأمير مانع المريدي في عام 850 هـ /1446م. في ذلك العام قَدِمَ مانع من بلده الدرعية في شرق شبه الجزيرة العربية بعد أن راسل قريباً له اسمه ابن درع وهو صاحب نفوذ في إقليم اليمامة فاستوطن مانع وأسرته وادياً منحه إياه ابن درع ويضم المُلَيِّيد وَغَصِيْبَة وهو المكان الذي أصبح يسمى بعد ذلك بالدرعية نسبة للبلدة القديمة التي كان يسكنها مانع وأسرته في شرق شبه الجزيرة العربية.

ولم يكن تولي الحكم في الدرعية مختلفاً عن بقية بلدات إقليم اليمامة ونجد، مثل العيينة وحريملاء والرياض التي كانت يتوارثها زعامات عربية، وهي زعامات تنتمي لقبائل عربية خالصة ومن أكبرها بنو حنيفة التي تنتسب لها أسرة آل سعود.

وكان الوصول إلى السلطة والحكم في تلك البلدات والحواضر يتم بطرق مختلفة إما وراثياً وإما بالتغلب، وهو أمر مألوف وسائد آنذاك. وكان حكام تلك البلدات يفرضون سيطرتهم وهيمنتهم على البلدات والقرى والقبائل المجاورة لهم، وهو ما أدى إلى صراع مستمر بينهم سعياً لتأسيس نفوذ واسع يؤدي إلى تحول صيغة حكمهم من مدينة إلى دولة مترامية الأطراف، وقد امتلأت بطون المصادر التاريخية لتلك الفترة - مثل ابن بشر وابن غنام وابن عيسى وابن يوسف - بالحديث عن تفاصيل ذلك التاريخ.

محمد وعدم قبوله بالضييم وسلب الحقوق، وهو ما جعل أهالي ووجهاء وأعيان الدرعية يختارونه لحكمها خلفاً لزيد بن مرخان.

لم تكن الحالة السياسية لمنطقة نجد عند تولي الإمام محمد بن سعود الحكم في الدولة السعودية الأولى تختلف كثيراً عما كان سائداً في المجتمعات العربية التقليدية من مؤهلات الزعامة والرياسة، والتي من أهمها أصالة النسب والشجاعة والكرم. ولقد كان أمراء البلدات النجدية ينتمون إلى قبائل عربية خالصة، وكان الصراع على السلطة بين أمراء تلك البلدات سبباً في حالات التفكك السياسي لتصبح كل بلدة مستقلة بذاتها وتتباين علاقاتها مع جاراتها ما بين حروب وأحلاف. وقد انعكست تلك الحالة على علاقة القبائل النجدية بعضها ببعض أو علاقاتها بأمراء وحكام البلدات النجدية، وكان للقبائل دور في ترجيح كفة ميزان قوة بلدة ضد أخرى حتى غدت كما في المثل المعروف " نجد لمن طالقت قناته".

امتد حكم الإمام محمد بن سعود للدرعية أربعين عاماً من 1139هـ/1727م حتى وفاته في عام 1179هـ/1765م شهدت فيه الدرعية تطورات وأحداثاً مفصلية نقلتها من صيغة (المدينة الدولة) إلى الدولة (The State) صاحبة النفوذ الأكبر في كامل شبه الجزيرة العربية بسبب السياسات الداخلية والخارجية التي اتخذها الإمام محمد طوال فترة حكمه والتي أصبحت الأسس لتوسع الدولة في عهود خلفائه من آل سعود. فقد سعى الإمام محمد بن سعود في بداية حكمه إلى تجاوز محنة الخلاف الداخلي الذي قام بين زيد بن مرخان ومقرن بن محمد على الحكم بهدف توطيد الاستقرار داخل الدرعية وإعادة اللحمة بين المتنازعين عن الوقوف مع طرف ضد آخر وكان ذلك نابعاً مما حباه الله من حسن سيرة ومعاملة ووفاء وسداد رأي وحسن تدبير. كما أن الإمام محمداً سعى إلى استثمار ما بدأه والده الأمير سعود بن محمد من رعاية علمية وترسيخ لمكانة الدرعية بين البلدات النجدية الأخرى ولا سيما المجاورة لها مثل حريملاء والرياض والعيينة.

حين بدأ الإمام محمد بن سعود مشروعه التأسيسي الوحدوي أراد إقامة دولة عربية خالصة أساسها الإسلام المعتدل تعيد المكانة لشبه الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الإسلام بعيداً عن الولاءات والتبعية لنفوذ العناصر غير العربية خاصة أن الدولة الكبرى آنذاك والمسيطرة على معظم الأقاليم والبلاد العربية كانت الدولة العثمانية، التركية الخالصة في توجهاتها وسياساتها وطبيعة حكمها فكل سلاطينها وحكام ولاياتها من العنصر التركي، وقد أبعدت أبناء العرب عن مراكز القوى والسلطة حتى من الحكم في أقاليمهم ومناطقهم. ولقد كان لتلك الدولة اليد الطولى في الهيمنة على عدد من حكام شبه الجزيرة العربية وإدارة شؤونها، هذا في الوقت الذي كانت هي ذاتها تعيش أسوأ مراحل حياتها في القرن 12 هـ/18م، فالفساد منتشر في كل مفاصلها السياسية والإدارية والعسكرية ومراكز القوى فيها تتنازع قراراتها داخل العاصمة إسطنبول من نساء القصر السلطاني وأغوات النساء وقادة الإنكشارية والصدور العظام، وانتشار الجهل وسيطرة الخرافات والمعتقدات الخاطئة في أرجائها بما في ذلك وجود ما عرف بـ "منجم باشي" كأحد أكبر موظفي القصر السلطاني. وكانت الأقاليم العربية التي تحتلها الدولة العثمانية أكثرها تضرراً فلم تكن تهتم الحكومة المركزية في إسطنبول بتنميتها وتطويرها، حيث لم تشهد تلك الأقاليم

في تلك الأثناء ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب في حريملاء ثم العيينة يدعو إلى منهج السلف الصالح والدين المعتدل بعيداً عن الخرافات، كما كان يدعو إلى اتباع التوحيد الخالص لله وحده لا شريك له متبعاً المذهب الحنبلي. وقد وجدت دعوته الإصلاحية تلك صدى إيجابياً في منطقة نجد فأخذ الوافدون يتكاثرون عليه في حريملاء ثم العيينة مما سبب انزعاجاً لحاكم الأحساء سليمان الخالدي الذي كانت له سلطةٌ ونفوذ على حكام العيينة التي كان يحكمها آنذاك عثمان بن معمر. أمر سليمان ابن معمر بإخراج الشيخ محمد بن عبد الوهاب من العيينة. ولأن الدرعية بمنزلة المركز السياسي والعلمي في وسط شبه الجزيرة العربية توجه الشيخ محمد إلى الدرعية لحمايته ودعمه وتوفير الملاذ الآمن له، فأقام بها ووجد النصرة والمؤازرة الفاعلة من الإمام محمد بن سعود ومن أسرة آل سعود لتصبح الدرعية مركز نشر الدعوة الإصلاحية ويجد فيها ابن عبد الوهاب البيئة الحاضنة لتعزيز دعوته في ظل حماية كاملة وليصبح داعيةً وواحدًا من رجالات دولة الإمام محمد الذين عملوا معه من السياسيين والعسكريين.

جاء لجوء الشيخ محمد بن عبد الوهاب للدولة السعودية ونصرة الإمام محمد بن سعود له في مرحلة من مراحل تطور الدولة حين بدأ يتزايد نفوذ الدرعية ويكمل الإمام محمد بن سعود مشروعه التأسيسي بتوحيد منطقة نجد وبلداتها في وحدة سياسية عربية مسلمة قوامها الدين الحنيف والمنهج الإسلامي القويم بعيداً عن الولاءات والانتماءات العرقية والمذهبية، وسيطرة الخرافات والبدع. كما تحولت الدرعية إلى مركز علمي في كامل شبه الجزيرة العربية ووجهة أمل لتوحيد بلدات نجد سياسياً حين قام الإمام محمد بن سعود بدعوة حكام تلك البلدات إلى الانضمام للكيان السياسي الذي كان قد أسس بنيانه، وبالفعل تجاوب عدد من أمراء البلدات النجدية فانضمت العيينة وحاكمها عثمان بن معمر والذي أصبح بعد ذلك أحد قادة الدولة في حملاتها العسكرية التوحيدية، كما انضمت حريملاء وحاكمها محمد بن مبارك، ومنفوحة والعمارية. تحولت الدرعية إلى عاصمة لكيان سياسي مؤثر سياسياً وعلمياً بقدر ما جذب لها مؤيدين وولاء بلدات نجدية بقدر ما خلق لها عداوات محلية وخارجية من حكام داخل شبه جزيرة العرب وخارجها، وكان من أشد أعدائها في نجد أمير الرياض دھام بن دواس الذي أنكر جميل الإمام محمد بن سعود بمساندته له حين ثارت عليه الرياض سابقاً في عام 1152هـ/1738م. وكان دھام يرى أن ما يقوم به الإمام محمد وتحول الدرعية إلى عاصمة لكيان سياسي مؤثر تهديداً لمركزه في إمارة الرياض، فأخذ يشن حملات عسكرية ضد مناطق انضمت وأصبحت جزءاً من دولة الإمام محمد، مثل منفوحة. وقد بلغ عدد المحاولات التي قام بها دھام ضد الدولة السعودية ومحاربتة لها إلى سبع عشرة محاولة أخفق فيها في تحقيق أي هدف يثني الدولة الجديدة عن إكمال مهمتها في توحيد منطقة نجد والانتقال إلى أطوارٍ أوسع وأشمل في كامل شبه جزيرة العرب.

كذلك واجهت الدرعية مواصلة حكام الأحساء بني خالد وزعيمهم عريعر بن دجين عداوهم لها منذ أن بدأت تبشير تأسيس الإمام محمد بن سعود لدولة مؤثرة في شبه جزيرة العرب، حيث قام عريعر في العام 1172هـ/1758م بمهاجمة الدرعية وكان الإمام محمد قد أقام حولها سوراً

أما أهل الحاضرة فقد كان لهم نصيب من التعليم بشقيه الأولي والمتقدم الذي كان يتم من خلال الكتاتيب سواءً تلك التي يمكن تسميتها بكتاتيب الأحياء التي عادة ما تكون ملحقةً بمنزل صاحبها أو تلك الملحقة بالمساجد. فالأولى كانت تُعنى بتدريس الطلاب القرآن الكريم، وحفظ سوره ومبادئ الكتابة والقراءة. في حين تعنى الثانية بتعليم الطلاب إضافة إلى التعليم الديني من قراءة للقرآن وحفظ سوره وتجويده تعلم الخط والإملاء والحساب ومبادئ النحو وجزءاً من السيرة النبوية. وكان الآباء خاصة ممن يعملون في التجارة يسعون إلى تعليم أبنائهم تلك المهارات للاستفادة منهم في إدارة متاجرهم. ومن أبناء تلك الأسر من كان يواصل تعليمه المتقدم مع علماء الدرعية مثل الشيخ قاسم بن عيسى والشيخ عبدالوهاب بن عبدالله بن عيسى والشيخ عبدالله بن سويلم، أو من خلال رحلات علمية للتواصل مع علماء من خارج الدرعية في منطقة نجد أو في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وبعض من سافر لطلب العلم وصلت به رحلاته إلى الشام والعراق ليكون على قدر كافٍ من التأهيل للعمل في مجال القضاء والإمامة. وكان ما شهدته الدرعية خلال فترة حكم الإمام محمد بن سعود من وجود عدد من العلماء الذين ذكرناهم سابقاً سبباً في نمو حركة علمية مؤثرة فيها وجعلها أكثر تأهيلاً من بلدات العارض ونجد بعامّة ولأن تكون مركزاً علمياً في كامل منطقة وسط شبه الجزيرة العربية ومركزاً لنشر الدعوة الإصلاحية في جنباتها وأرجائها كافة.

توحيد الدرعية بشقيها الملييد وغصيبة وبناء سور منيع لها وتولي أسرة (آل سعود) حكمها وقيادة الحملات العسكرية لتوحيد منطقة نجد وصد الحملات المعادية ضد الدرعية، وبناء مؤسسات للدولة كالقضاء، وتأمين طرق السير لقوافل التجارة والحج، واحتضان الدعوة الإصلاحية وتوفير الحماية والبيئة الآمنة لها، وتوجيه الجيوش لتوحيد نجد وبناء الحصون وبروز الأساليب الحربية وتحويل صفة الكسب نتيجة لتلك الحملات إلى مصارفه الشرعية واستبدال الإتاوة بالزكاة، وتعيين الأمراء والقضاة ورجال الحسبة، والاهتمام بالنواحي العلمية التي قام بها الإمام محمد بن سعود طوال فترة حكمه التي امتدت أربعين عاماً كانت هي الأساس القوي لما حدث في عهود خلفائه وما تحقق من إنجازات يجعله بالفعل المؤسس الحقيقي للدولة السعودية التي أصبحت اليوم في القرن الخامس عشر الهجري/ الحادي والعشرين الميلادي بعد إعادة وحدتها على يد حفيد الإمام محمد الخامس في سلسلة النسب الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن من الدول المؤثرة سياسياً ودينيّاً واقتصادياً بين دول العالم المعاصرة، وتكون بذلك الوحدة العربية الوحيدة الناجحة في تاريخ العرب الحديث والمعاصر.



إرث الإمام

محمد بن سعود

د. حمد بن عبدالله العنقري







منذ أن وصل إلى الدرعية الأمير مانع المريدي - الجد الأعلى للإمام محمد بن سعود- في منتصف القرن التاسع الهجري، أي قبل نحو ما يزيد على قرنين وثمانية عقود من تأسيس الدولة السعودية الأولى، ومنذ أن استقر بها شهدت الدرعية تطوراً ونمواً ملحوظاً، بحيث بدأت تؤثر في السياق التاريخي العام لإقليم العارض في نجد، واكب ذلك من ناحية أخرى تجذر ورسوخ لسلالته برغم التنافس الحاد والمزيم على النفوذ في داخلها. ووفقاً للمدونات التاريخية النجدية فقد خلف ربيعة بن مانع أباه في إمارة الدرعية، ثم جاء من بعده ابنه موسى الذي استفاضت شهرته، بعد واقعة تنكيهه بآل يزيد، وضم أملاكهم إلى الدرعية، وبعد هذا الأمير اعتلى الإمارة ابنه إبراهيم، ثم ابن هذا الأخير مرخان، الذي انحصرت في ذريته إمارة الدرعية، وتحديداً في ابنه ربيعة، ومقرن. وقد أشارت بعض المدونات في القرن الحادي عشر الهجري إلى حج أميرالدرعية مقرن وربيعة بن مرخان، حيث رصدت ذلك في عام 1039هـ/1630م، عقب ذلك احتد النزاع على الإمارة بين الفرعين، أو بين بعض أفرادهما، إذ تورد إحدى المدونات خبراً في عام 1121هـ/1709م يتعلق بتولي موسى بن ربيعة بن وطبان إمارة الدرعية، غير أن أهل الدرعية ثاروا عليه، وخلعوه عنها، وحيال هذا الخبر لا يستبعد أحد المؤرخين أن يكون الأمير سعود بن محمد بن مقرن كان على رأس الثائرين، وهو ما جعل الأمير موسى يلجأ إلى العيينة، ويبقى فيها حتى وفاته في عام 1139هـ/1727م.

أصبح الإمام سعود بن محمد بن مقرن أميراً على الدرعية، وظل في الإمارة على ما يظهر حتى وفاته عام 1137هـ/1725م، ليخلفه زيد بن مرخان، الذي ثار عليه مقرن بن محمد، وانتزع الإمارة منه، غير أن هذا الأخير قُتل على يد محمد بن سعود ومقرن بن عبدالله، بعد أن رام خفر جوارهما، والغدر بالأمير السابق زيد بن مرخان. وعلى إثر هذه الحادثة أعيد زيد بن مرخان أميراً على الدرعية مرة أخرى، لكنه لم يستمر طويلاً بسبب مقتله على يد أمير العيينة عام 1139هـ/1727م، ولأن الإمام محمد بن سعود كان مؤثراً وفاعلاً في حياة الأمير السابق، أقبل أهالي الدرعية فالتفوا حوله وبايعوه أميراً على الدرعية.

وبتسلم الإمام محمد بن سعود مقاليد السلطة في الدرعية، تتأسس الدولة السعودية الأولى، ويبدأ عهد جديد في الدرعية، ذلك أن المدونات التاريخية النجدية التي كانت ترصد التنافس المحموم على السلطة والنفوذ فيها، وما ترتب عليه من قلاقل واضطرابات، صمتت عن كل ذلك مع حلول هذا العهد الجديد بما يؤشر على أن الإمام محمد بن سعود نجح في فرض الأمن والاستقرار في الدرعية، هذه الأحداث التاريخية وما تكتنزه من وقائع ومعانٍ لم تكن غائبة عن الإمام محمد الذي شهد آخر فصولها، باعتبار أن ولادته كانت في عام 1090هـ، أي في عهد جده الأمير محمد بن مقرن، ومن ثم فإنه عاصر الولاية الثانية له على الدرعية، ثم خروج الإمارة

ثم في نجد إلى أن استطاعت أن تضم معظم مناطق الجزيرة العربية، وهذا المشروع الذي قام به الإمام محمد بن سعود كان له بصمات واضحة فيها مستمرة إلى اليوم، وهو ما يمكن وصفه بإرث الإمام محمد بن سعود، الذي يمكن اختزاله في عدة أمور نذكر منها ما يأتي:

« أولاً: الدولة السعودية بمراحلها الثلاث

حفلت هذه الفترة بسلسلة من الأحداث المتتالية التي شملت معظم أجزاء شبه الجزيرة العربية وأجزاء من المناطق الجنوبية للعراق وأجزاء من بلاد الشام نتيجة جهود آل سعود في توحيد هذه الأجزاء من الولايات العربية التي كانت تابعة للدولة العثمانية آنذاك، وقد تعرضت هذه الدولة في مراحل تاريخها الأولى لكثير من الأخطار لكنها استطاعت أن تصمد لها وتتغلب عليها حتى غدت تجربة رائدة في عصرها. فقد بدأ نجم آل سعود يأخذ في الصعود منذ تولي الإمام محمد بن سعود مقاليد الحكم في الدرعية في عام 1139هـ / 1727م، إذ سرعان ما قام بتوحيد شطري الدرعية، وبعد استقرار الأمور فيها سعى الإمام محمد بن سعود إلى تطوير دولة المدينة إلى مشروع الدولة الكبيرة، لذلك سرعان ما نمت الدرعية وتوسعت، وإذا أردنا أن نحكم على الدولة السعودية بمقياس عصرها فلا شك أنها أسدت خيراً إلى منطقة نجد، فقد أنقذتها من حالة الفوضى التي كانت ترزح تحتها، ثم أخذت الدولة التي نشأت ونمت في منطقة نجد التي استغرق توحيدها قرابة الخمسين عاماً من (1159-1208هـ / 1746-1794م)، إذ قامت بتوحيد هذه المنطقة الشاسعة المساحة والمتنوعة الولاءات والزعامات في وحدة سياسية واحدة، وأصبح لها أمراء وعمال ودعاة في جميع مناطق نجد الموحدة، وبإتمام هذا العمل تطلعت بعدها إلى الأحساء وغيرها من أقطار الخليج، وأصبح على الدولة أن توجه جهودها إلى ميادين أخرى خارج حدود نجد وداخل أراضي شبه الجزيرة العربية وخارجها.

وبعد أن وحدت الدولة السعودية منطقة نجد قررت أن تضم منطقة الأحساء، التي مر توحيدها بثلاث مراحل، يمكن إجمالها في الآتي:

المرحلة الأولى: بدأت بالحملات السعودية، وهدفها الأساس مواجهة المدن الإحصائية التابعة لبنني خالد والقبائل المنضوية تحتهم.

المرحلة الثانية: تميزت هذه المرحلة بالصراع الداخلي بين شيوخ بني خالد في الأحساء، وقد استفادت الدولة السعودية من حالة هذا الصراع لترجيح كفة أتباعها.

المرحلة الثالثة: تمثلت في ضم المدن الأحسائية وأقامت الحصون والحاميات السعودية في داخلها، أو بالقرب منها لتكون بمنزلة ضمان لاستقرار الأوضاع في الأحساء.

لقد كان لخضوع الأحساء للدولة السعودية آثار ذات أهمية كبيرة على ازدهار الدولة السعودية الأولى وتطورها، فقد زاد من مواردها الاقتصادية، ووسع من دائرة النفوذ السعودي الذي أصبح يشرف على مياه الخليج العربي، وصار للدولة السعودية منفذ بحري، وأسهمت الدولة في نشر مبادئ العقيدة الصحيحة ومحاربة البدع والخرافات المخالفة.

قاضي من أهل الخرج كان مقيماً في الرياض هو الشيخ عبدالله الخرجي، فتعلم عليه مبادئ القراءة والكتابة، وحفظ سوراً من القرآن الكريم، وقرأه كاملاً على الشيخ محمد بن مصيب، ثم تلقى بعض أصول الفقه والتوحيد على يد الشيخ عبدالله بن عبداللطيف في كراسة صغيرة أعدها خصيصاً له، وقد أحسن استعمال السلاح، وركوب الخيل وامتطاء الإبل وهو في سن الصبا، وتعلم استخدام السيف واللعب به، وعوده والده الإمام الاستيقاظ قبل صلاة الفجر للصلاة، ووجهه للرياضة، وأدبه بآداب آل سعود. ولذا فقد ظهرت سمات الرجولة عليه، فعندما حاصر محمد عبدالله بن رشيد الرياض عام 1308هـ/ 1890م خرج إليه الأمير محمد بن فيصل والشيخ عبدالله بن عبداللطيف والشيخ حمد بن فارس والملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن مفاوضين، وقد لاحظ ذلك ابن رشيد وعزى خلالها الملك عبدالعزيز بوفاة أخيه الأمير فيصل وقال له: "عسى أن يجعلك الله عوضاً عنه"، وقد جعله الله عوضاً عنه.

◀ ثالثاً: أوقافه

وقد جرت العادة في الأسرة المالكة على الوصية والوقف، وتحفظ إدارة أوقاف آل سعود بكثير من الوصايا والأوقاف أوقفها أبناء الأبناء الإمام محمد بن سعود وأحفاده على مناحي مختلفة من أوجه الخير والبر، ونظراً لما تعرضت له الدرعية من تدمير وخراب وما صاحب هذا التدمير والخراب من هجرة وانتقال فإنه يندر أن تتوافر وثائق وقفية تعود إلى فترة الإمام محمد بن سعود، وفي نظري يستبعد أن لا يقوم الإمام محمد بن سعود بوضع وقف له وهو المتدين في أصله، ولذا فلم أطلع حسب ما توافر لدي على وقفية له لكن وجدت أن أبناءه وأحفاده قد أوقفوا له، فقد أوقف الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود كتباً عدة على والده الإمام محمد بن سعود، وصلنا منها كتاب: (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري) لأحمد بن محمد القسطلاني، الذي أمر الإمام عبدالعزيز بوقف أجزائه السبعة وجعل ثوابه لوالده الإمام محمد بن سعود،

ولوالدته الأميرة موزي بنت سلطان بن أبي وهطان، ولشيخه الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وقد شهد على ذلك الأمير عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد، وشهد عليها جميعاً الشيخ إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب، وكتبها وشهد بها الشيخ عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب، ونص ما دون على المجلد السابع: "الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيد الأولين والآخرين أما بعد فقد وقف وسبل وحبس عبدالعزيز ابن سعود تقبل الله منا ومنه هذا المجلد شرح البخاري مع بقية المجلدات السبعة نصفهن سبالة للشيخ محمد الله يعفي عنه ونصفهن سبالة لأبيه وامه عفى الله عنهم شهد على هذا إبراهيم بن الشيخ وعبدالله بن عبدالعزيز وكتبه وشهد به عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب وصلى الله على محمد وآله وسلم"، وقد دونت هذه الوقفية نفسها على أغلب هذه المجلدات، بزيادة بعض الألفاظ أو نقصها.

﴿ رابعاً: الأسرة المالكة ﴾

وصل الإمام محمد بن سعود إلى سدة الحكم في الدرعية، ومنذ أن وصل إليها أصبح تأسيس الدولة، محددًا رئيساً لمجمل أعماله السياسية والعسكرية، هذا المحدد بات أيضاً قارراً في ذهنية من جاء بعده من أمراء البيت السعودي إبان الدولة السعودية الأولى، وعملوا جاهدين لتوفير كل السبل التي من شأنها تدعيم مركزية السلطة في يد الإمام القائم من آل سعود، فقد حرص الإمام محمد بن سعود على وحدة الأسرة المالكة وتكاتفها، ولا شك أن ذاكرة الإمام محمد بن سعود ومشاهداته ومشاركته قبل توليه السلطة في الأحداث الجارية في الدرعية اختزنت الكثير مما رآه من أحداث؛ لذا حرص خلال حكمه على تهيئة الأوضاع لاستقرار الحكم وقام فور توليه الحكم في عام 1139هـ/ 1727م بتوحيد الدرعية وضم غصيبة، وأجلى بقية آل وطبان من الدرعية؛ ولذا اتسمت الفترة الأولى من حكمه في دولة المدينة بالاستقرار، وحرص خلالها على استقرار الحكم وعدم التنازع، ولذا أصبح هذا النهج الذي ارتسمه دستوراً للأسرة استمر إلى اليوم في تماسك الأسرة لما له من نتائج على النسيج الاجتماعي، وتعزيز الانتماء والولاء للحاكم من الأسرة، وقد أثبت كثير من الأحداث اللاحقة حرص الأسرة على هذا النهج، والشواهد على

ذلك كثيرة جداً، وبزرت وحدة الأسرة في حصار الدرعية، إذ تفانى الأمراء من أسرة آل سعود في الدفاع عن كياناتهم خلف الإمام عبدالله بن سعود ووقفوا معه صفاً واحداً، ويصف ابن بشر بطولات الأمراء ودورهم في الدفاع عنها. كما أسهم الأمراء من ذرية الإمام محمد بن سعود في التفاني في القتال والدفاع عن دولتهم وقيادة القوات، فقد تولى الإمام عبدالعزيز بن محمد قيادة الجيوش في وقت أبيه، وكذلك فعل الإمام سعود بتوليته قيادة الجيوش في عهد والده، وتولى الإمام عبدالله بن سعود قيادة الجيوش خلال حكم والده، وفعل ذلك الأمراء من أبناء الإمام سعود في قيادة الجيوش في فترة حكم أخيه الإمام عبدالله. وبعد سقوط الدولة السعودية الأولى نتيجة الحملات العثمانية المعتدية سعى أفراد الأسرة مرة أخرى لإحياء الدولة من جديد، ولذا قبل الإمام تركي بن عبدالله العمل مع الأمير مشاري بن سعود في محاولته بناء الدولة، وسعى الإمام تركي خلال فترة حكمه إلى دعوة أبناء الأسرة بالعودة إلى نجد، ومساعدتهم في ذلك، فقد أرسل إلى ابن أخته الأمير مشاري بن عبدالرحمن قصيدة في ذلك. كما سعى الإمام عبدالله بن فيصل إلى جمع الكلمة ووحدة الصف عندما كلف العلماء بنصيحة أخيه الأمير سعود بن فيصل في عدم منازعة الإمام في حكمه.

وقد تبني الملك عبدالعزيز مبدأ جده الأعلى الإمام محمد في التمسك بعري الوحدة والصفح عن المخطئ من أبناء الأسرة لضمان وحدتها وتماسكها، ولذلك كانت نصيحة الملك عبدالعزيز لابنه الملك سعود عند مبايعته بولاية العهد بأن يتخذ من الاهتمام بجمع الكلمة ووحدة الصف منهجاً وطريقة في الحكم، فقال له: "عليك أن تنظر في أمر المسلمين عامة، وفي أمر أسرتك خاصة، اجعل كبيرهم والدًا، ومتوسطهم أخًا، وصغيرهم ولدًا، وهن نفسك لرضاهم، واصفح زلتهم، وأقل عثرتهم، وانصح لهم، واقض لوازمهم بقدر إمكانك، فإذا فهمت وصيتي هذه ولازمت الصدق والإخلاص في العمل فأبشر بالخير". وهذا النهج المبارك هو المتبع إلى اليوم في الأسرة المالكة، وقد تم تأطيره بشكل دستوري إذ حدد نظام البيعة ذلك فنص على أن: "تلتزم الهيئة بكتاب الله تعالى، وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، والمحافظة على كيان الدولة، وعلى وحدة الأسرة المالكة، وتعاونها، وعدم تفرقها، وعلى الوحدة الوطنية ومصالح الشعب". ولذا أصبحت السلاسة في تولي المناصب هي كلمة السر التي يتوارثها أمراء آل سعود، وهم يدركون أن ترابطهم هو الضامن الأساسي لمملكة موحدة ذات تأثير واسع في المحيط.

وختاماً؛ فإن للمملكة العربية السعودية تاريخها الفريد، الذي يجعله قابلاً للاستعادة والإنتاج من جديد، وهو منبثق بدافع من الجهود الفريدة والحكمة السياسية والطموح السياسي لمؤسسها وباني صرحها الإمام محمد بن سعود. وفي حين أن المملكة العربية السعودية لم تترك إدارة استعمارية أو نخبة قومية مماثلة للنخب التي نشأت في أماكن أخرى من العالم العربي والإسلامي، فإن المرء يصعب عليه تخيل أسباب النجاح دون النظر والتوقف مطولاً عند كيفية دور الإمام محمد بن سعود في التأسيس ودوره في توحيد تركة واسعة من الإمارات في المنطقة إمارة تلو أخرى في بوتقة واحدة عرفت بالدولة السعودية، وكيف تحقق ذلك مرة ثانية في عهد الإمام تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود ثم مرة ثالثة في عهد الملك عبدالعزيز آل سعود.

المصادر والمراجع:

- أقدم مدرسة في المملكة فهل تعرفونها؟، جريدة الجزيرة، س18، ع335، (10 المحرم 1402هـ/ 6 نوفمبر 1981م).
- الاحتفال السنوي لمدرسة الأمراء، جريدة أم القرى، س22، ع1066، (24 شعبان 1364هـ/ 3 أغسطس 1945).
- بين جلالة الملك وسمو ولي عهده، جريدة أم القرى، س9، ع440، (24 المحرم 1352هـ/ 19 مايو 1933م).
- خادم الحرمين الشريفين يفضح بنمط الحقائق ولغة الأرقام ججود ومغالطات صدام حسين"، جريدة الجزيرة، س28، ع6685، (2 رجب 1411هـ/ 17 يناير 1991م).
- سمو الأمير سلمان يزور الشيخ الخياط، جريدة عكاظ، س26، ع6943، (5 شوال 1405هـ/ 22 يونيو 1985م).
- كلمة الأمير سلمان ابن جلالة الملك المعظم"، جريدة أم القرى، س22، ع1125، (25 شوال 1365هـ/ 20 سبتمبر 1946م).
- ابن بشر، عثمان بن عبدالله: عنوان المجد في تاريخ نجد، المطبعة السلفية، مكة المكرمة، 1349هـ.
- ابن بشر، عثمان بن عبدالله: عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، داره الملك عبدالعزيز، الرياض، 1403هـ/ 1983م.
- ابن خميس، عبدالله بن محمد: الأدب الشعبي في جزيرة العرب، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ط. 2، 1402هـ/ 1982م.
- ابن خميس، عبدالله بن محمد: الدرعية العاصمة الأولى، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1402هـ/ 1982م.
- ابن رزيق، حميد بن محمد: الفتح المبين في سيرة السادة اليوسعيين، تحقيق عبدالمنعم عامر ومحمد مرسي عبدالله، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، ط. 5، 1422هـ/ 2001م.
- ابن عباد، محمد بن حمد: تاريخ ابن عباد، تحقيق عبدالله بن يوسف الشبل، الأمانة العامة لعمور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، الرياض، 1419هـ/ 1999م.
- ابن عساكر، راشد بن محمد: بوابكر الوثائق والخطوط لبعض الأئمة من آل سعود، درة التاج للنشر والتوزيع، الرياض، 1426هـ/ 2005م.
- ابن عيسى، إبراهيم بن صالح: تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، أشرف على طبعه حمد الجاسر، دار اليمامة للطبع والترجمة والنشر، الرياض، 1386هـ/ 1966م.
- ابن عيسى، إبراهيم بن صالح: عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول القرن الرابع عشر، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على توحيد المملكة، الرياض، 1419هـ/ 1999م.
- ابن غنام، حسين: روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، المكتبة الأهلية، الرياض، 1368هـ/ 1949م.
- ابن غنام، حسين: روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، المطبعة المصطفوية، بمبي، 1337هـ.
- ابن قاسم، عبدالرحمن بن محمد: الدرر السنية في الأجيبة التجديدية، د. ن. الرياض، 1416هـ/ 1995م، ط. 5.
- ابن معمر، عبدالمحسن بن محمد: إمارة البينة وتاريخ آل معمر، دار المريخ، الرياض، 2004م.
- ابن هشام، عبدالملك الحميري: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبدالحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط. 3، 1391هـ/ 1971م.
- أبو حاكم، أحمد مصطفى: تاريخ الكويت، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1390هـ/ 1980م.
- ابن عسار، سعود بن هذلول: تاريخ ملوك آل سعود، مطابع الرياض، الرياض، 1380هـ/ 1961م.
- البلاذري، أحمد بن يحيى: أنساب الأشراف، تحقيق إحسان عباس، دار النشر فرانتس شتاير بفيسبادن، بيروت، 1400هـ/ 1979م.
- بن جليد: يحيى محمود: وقفية الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود (1133-1218هـ)، مجلة عالم المخطوطات والنادار، معج، ع2، (رجب-ذو الحجة 1417هـ/ يناير-يونيو 1997م).
- الجاحظ، عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحيقي عبدالسلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1367هـ/ 1948م.
- الجاسر، حمد بن محمد: "المرآة في حياة إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب"، ضمن كتاب: بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1403هـ/ 1983م.
- حمزة، فؤاد: تاريخ البلاد العربية السعودية، د. ن. مكة المكرمة، 1355هـ/ 1937م.
- حيدر زاده، شيخ الإسلام إبراهيم أفندي: "وهاييك"، مجلة سبيل الرشاد، مع 17، ع44، (22 ذي الحجة 1337هـ).
- الحيدري، إبراهيم بن صبيحة الله: عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد، دار منشورات البصري، بغداد، د. ن.
- الحيدري، إبراهيم بن صبيحة الله: عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد، نسخة المؤلف المخطوطة المحفوظة في مكتبة وهبي أفندي البغدادي ضمن مكتبة السليمانية بإسطنبول برقم (1327).
- خياط، عبدالله عبدالغني: لمحات من الماضي، داره الملك عبدالعزيز، الرياض، 1425هـ/ 2004م.
- الدوسري، أمنة أحمد جابر: حملات محمد علي ضد الدولة السعودية الاولى: حملة أحمد طوسون باشا (1226-1230هـ)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب بالدمام، الرئاسة العامة لتعليم البنات، 1409هـ/ 1989م.
- رسالة الإمام عبدالعزيز بن محمد إلى السلطان سليم الثالث، وهي قيد الدراسة والنشر بإذن الله.
- الرشيد، عبدالعزيز بن أحمد: تاريخ الكويت، المطبعة العصرية، بغداد، 1344هـ/ 1926م.
- الريحاني، أمين: تاريخ نجد الحديث وملحقاته، المطبعة العلمية، بيروت، 1928م.
- الريكي، حسن بن جمال بن أحمد: لمع الوثهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب، تحقيق عبدالله الصالح العثيمين، داره الملك عبدالعزيز، الرياض، 1426هـ/ 2005م.
- الزركلي، خير الدين: شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، دار العلم للملايين، بيروت، 1397هـ/ 1977م.
- السالمي، حماد: "رحلة عمرها سبعون عامًا في سجلات أقدم مدرسة نظامية"، جريدة الجزيرة، س21، ع335، (10 جمادى الآخرة 1404هـ/ 30 مارس 1984م).
- السالمي، عبدالله بن حميد: تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، قام بطبعه إبراهيم أطفيش الجزائري، المطبعة السلفية، القاهرة، 1347هـ.
- السبيعي، عبدالله بن ناصر: الحملة العسكرية العثمانية على الأحساء والتقطيف وقطر 1288-1331هـ/ 1871-1913م، مطابع الجمعة الالكترونية، الرياض، 1420هـ/ 1999م.
- سعيد، أمين: تاريخ الدولة السعودية، دار الكاتب العربي، بيروت، د. ن.
- السعيد، دلال محمد: عهد الإمام تركي بن تركي آل سعود (1233-1259هـ/ 1818-1834م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى- 1408هـ/ 1988م.
- السماري، فهد بن عبدالله: مذكرات أحمد علي بن أسد الله الكاظمي، داره الملك عبدالعزيز، الرياض، 1438هـ/ 2016م.
- الشيخ خزل، حسين خلف: تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب، دار الكتب بيروت، 1388هـ/ 1968م.
- العثيمين، عبدالله الصالح: تاريخ المملكة العربية السعودية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط. 13، 1426هـ/ 2005م.
- العجلاني، منير: تاريخ البلاد العربية السعودية، دار الشبل، الرياض، ط. 2، 1413هـ/ 1993م.
- العنقري، حمد بن عبدالله: حكم محمد العبدالله بن رشيد لنجد 1289-1315هـ/ 1873-1897م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، 1425هـ/ 2004م.
- العنقري، حمد بن عبدالله: مكتبات الدولة السعودية الأولى المخطوطة دراسة تحليلية لعوامل انتقالها واندثارها بعد سقوط الدرعية، داره الملك عبدالعزيز، الرياض، 1430هـ/ 2009م.
- الغلامي، عبدالمنعم: الملك الراشد جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز آل سعود، مطبعة المعارف، بغداد، 1373هـ/ 1954م.
- الفاخري، محمد بن عمر: تاريخ الفاخري، تحقيق عبدالله بن يوسف الشبل، الأمانة العامة لعمور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، الرياض، 1419هـ/ 1999م.
- الفرج، خالد بن محمد: الخبر والعيان في تاريخ نجد، تحقيق عبدالرحمن الشقير، مكتبة العبيكان، الرياض، 1421هـ/ 2000م.
- القحطاني، فاطمة بنت حسين: حملة إبراهيم باشا على الدرعية وسقوطها (1231-1233هـ/ 1816-1818هـ)، داره الملك عبدالعزيز، الرياض، 1431هـ/ 2009م.
- الكلب، فهد بن عبدالعزيز: علماء وأعلام وأعيان الزلفي، د. ن. الرياض، 1415هـ/ 1995م.
- الكندري، فيصل بن عبدالله: الحملة العثمانية على الإساءة عام 1288هـ/ 1871م من خلال الوثائق العثمانية، مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية، الكويت، 2003م.
- كيلي، جون: بريطانيا والخليج العربي (1795-1870م)، ترجمة محمد أمين عبدالله، وزارة الثقافة والتراث القومي، عمان، د. ن.
- كيلي، جي. بي: الحدود الشرقية لشبة الجزيرة العربية، ترجمة خيري حماد، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، 1971م.
- لوريهر، ج.ج: دليل الخليج: القسم التاريخي، الديوان الأميري، الدوحة، ط. 3، 1423هـ/ 2002م.
- المبرد، محمد بن يزيد بن عبدالأكبر: الكامل في اللغة والأدب والنحو التصريف، تحقيق زكي مبارك، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1355هـ/ 1936م.
- المطوع، عبدالله بن صالح: عقود الجمان في أيام آل سعود في عمان، تحقيق محمد بن سليمان الخضيري، د. ن. الرياض، 1431هـ/ 2010م.
- المنثور، أحمد بن محمد: تاريخ الشيخ أحمد بن محمد المنثور، تحقيق عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر، الأمانة العامة لعمور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، الرياض، 1419هـ/ 1999م.
- وايندر، ريتشارد بايلي: المملكة العربية السعودية في القرن التاسع عشر الميلادي، راجع الترجمة وعلق عليها فهد بن عبدالله السماري، داره الملك عبدالعزيز، الرياض، 1434هـ/ 2013م.
- وزارة الخارجية السعودية: التحكيم لتسوية النزاع الإقليمي بين مسقط وأبو ظبي وبين المملكة العربية السعودية: عرض حكومة المملكة العربية السعودية، وزارة الخارجية السعودية، جدة، 1374هـ/ 1955م.
- وهبة، حافظ: خمسون عامًا في جزيرة العرب، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1380هـ/ 1960م.



جوانب من شخصية الإمام محمد بن سعود وتأسيسه للدولة

(1090-1179هـ / 1679-1765م)

أ.د. نايف بن علي السنيد الشراي





وتتناول الدراسة مقدمة ومباحث عدة تتناول الحديث عن الإمام محمد بن سعود من حيث: (ولادته، وحياته قبل توليه الحكم، وتوليه الحكم سنة 1139هـ/1727م، ومكانته الشخصية وأبرز صفاته، وأبرز جهوده وأهم أعماله، وجوانب من شخصيته، ووفاته -رحمه الله-)، إضافة إلى الخاتمة وقائمة المصادر والمراجع.

◀ سلسلة نسب الإمام محمد:

محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع المريدي الحنفى العدناني.

◀ ولادته:

ولد الإمام محمد بن سعود عام 1090هـ/1679م، ورُزق بابنه الأمير عبدالعزيز سنة 1133هـ/1720م وهو في سن الثانية والأربعين من عمره، وترك له قيادة جيوش الدولة سنة 1163هـ/1750م بعدما تجاوز السبعين عامًا.

وهذا يدلنا على أن الإمام محمد بن سعود تولى الحكم وهو في عمر الثماني والأربعين سنة، ما يعني أنه حكم الدولة ولديه الكثير من الخبرات الإدارية والمهارات القيادية التي انعكست إيجاباً على أدائه خلال فترة حكمه.

﴿ حياته قبل توليه الحكم:﴾

إذا كانت المصادر والمراجع شحيحة في معلوماتها عن الإمام محمد بن سعود بعدما تولى الحكم فهي نادرة وتكاد تكون معدومة عنه قبل ذلك، إنما وردت بعض المعلومات التي تسلط الضوء على أحداث مهمة من تاريخ نجد وفيها إشارة بطريقة غير مباشرة إلى الإمام محمد بن سعود؛ منها مثلاً: أن والده الأمير سعود بن محمد تولى الحكم في الدرعية خلال الفترة (1132-1137هـ/1720-1725م)، وكان الأمير سعود بن محمد يعتمد على ابنه الأكبر خلال تلك الفترة الإمام محمد بن سعود، تماماً كما اعتمد فيما بعد الإمام محمد بن سعود على ابنه الأمير عبدالعزيز خلال فترة توليه الحكم في الدولة السعودية.

ويذكر ابن بشر ضمن حوادث سنة 1139هـ/1726م حادثة مقتل الأمير مقرن بن محمد في تلك السنة، ويذكر سبب ذلك أن الأمير مقرن بن محمد قام بمصالحة الأمير زيد بن مرخان وطلب منه القدوم إلى الدرعية، لكن زيداً خاف من غدر مقرن واشتراط عليه كفالة الإمام محمد بن سعود ومقرن بن عبدالله بن مقرن اللذين كفلاه، وعندما أتى زيد إلى الدرعية همّ مقرن بقتله والغدر به لولا أن الإمام محمد بن سعود ومقرن بن عبدالله وثبا عليه فألقى بنفسه من فرجة واختفى في بيت خلاء فأدركاه وقتلاه وفاءً بالعهد واستنكاراً للغدر، وردّاً زيداً إلى حكم الدرعية.

كذلك ضمن حوادث تلك السنة 1139هـ/1726م تحدث ابن بشر عن غدر رئيس العيينة الملقب

مجموعة من أعيان الدرعية.

كان الإمام محمد بن سعود ضمن من حضر من أمراء الدرعية وأعيانها إلى العينة التي غدر رئيسها بهم، واستطاع الإمام محمد بن سعود أن يتحصن هو ومجموعة معه في أحد أبراج القصر ولم يخرج إلا بعد أن حصل على الأمان.

انتهت هذه الأحداث منتصف سنة 1139هـ/1727م، وبعودة الإمام محمد بن سعود إلى الدرعية ببيع بالحكم فيها، وهذا هو سبب صدور الأمر الملكي رقم (أ/371)، وتاريخ 24 / 6 / 1443هـ بتحديد يوم (22 فبراير) من كل عام يومًا لذكرى تأسيس الدولة السعودية، باسم (يوم التأسيس).

كان الإمام محمد بن سعود قد استوعب أن توحيد بلدان نجد بحاجة إلى زعامة قوية وحازمة، وكان لديه من الخبرات والتجارب في أنظمة الحكم الكثير مما اكتسبه خلال فترة حكم والده الأمير سعود بن محمد (1132-1137هـ/1720-1725م) وما بعدها، فقد كان مراقباً جيداً للأحداث التي من حوله، ومتأملاً في كل ما يحدث، لذا عرف الإمام محمد بن سعود منذ توليه أن نظام الحكم الذي يجعل الأحقية في حكم الدرعية لمن هو أكبر سنّاً بين فرعين من أبناء العمومة لن يحقق الاستقرار في الحكم؛ لأن كل من جاء لكبر سنه وحكم قام بنقض ما بناه الحاكم السابق، وهو أيضاً نظام يجعل المجال مفتوحاً بشكل كبير جداً للطامحين والمنافسين على الحكم، فأعداد المتطلعين للحكم كثيرة من فرعي آل وطبان وآل مقرن، وقد أدى ذلك إلى الاقتتال بين أبناء العمومة للوصول إلى الحكم، لذلك سعى الإمام محمد بن سعود إلى وضع نظام ولاية العهد، ويعد هو أول من وضعها في نسله، وذلك لضمان استقرار الحكم واستمراره، ولو كان الإمام محمد بن سعود طامعاً في الحكم لما أعاد زيداً إليه في وقت كانت فيه الفرصة سانحة له أن يحكم الدرعية بعد قتله للأمير مقرن بن محمد، وهو أمرٌ يمكننا استنتاجه أيضاً من موقفه مع حاكم الرياض دھام بن دؤاس، حيث قام الإمام محمد بن سعود بمساعدة حاكم الرياض دھام بن دواس، فأرسل إليه أخاه مشاري ومعه عدة رجال في سنة 1151هـ/1738م فأقاموا عند دھام بن دواس عدة أشهر حتى استقرت الأمور له في حكم الرياض، فهو يريد الاستقرار الإقليمي في المنطقة وليس له أطماع غير شرعية في الحكم.

وخلال فترة حكم الإمام محمد بن سعود اهتم بالأُمور الداخلية للدرعية، وأمر ببناء حي جديد في سمحان واتسعت منطقة نفوذ الدرعية بعدما ضم الإمام محمد بن سعود إليها (غصيبة) التي رحل عنها أغلب آل وطبان إلى الزبير فأصبح نفوذ حكمه أوسع ممن سبقه، لكن أغلب المؤلفات التي وصلتنا أغفلت تفاصيل ذلك، حتى إن ابن بشر وابن غنام لم يفصلا الحديث عن الإمام محمد بن سعود برغم كونه المؤسس للدولة السعودية.

والواضح من النصوص التاريخية وتعامل المجتمع مع الزعامات السابقة للإمام محمد بن سعود أنها تتعامل معها على أنها مشيخات وإمارات صغيرة، وأن تولي الإمام محمد بن سعود كان هو الحد الفاصل بين مفهوم تلك المصطلحات والمفهوم الذي انتقلت به الدرعية إلى مصطلح عاصمة الدولة.

ونجح الإمام محمد بن سعود في تحقيق الاستقرار الداخلي منذ توليه الحكم سنة

أولاً: الجوانب السياسية والإدارية والاقتصادية:

نجح الإمام محمد بن سعود في إرساء نظام ولاية العهد وتسلسل الحكم في ذريته من بعده، وعرف عن الإمام محمد بن سعود حرصه على تحقيق الاستقرار السياسي في المنطقة واحترامه للعهود والمواثيق، وكان يدعم ذلك ويقف بصرامة في وجه المخربين وأهل الأهواء والفتن، ويكره إشعال نار الحرب، فهو لا يستخدم القوة إلا دفاعاً لا هجوماً.

كما نجح الإمام محمد بن سعود في تحصين العاصمة الدرعية، وكان كلما سيطر على بلد من بلدان نجد بنى فيها حصناً، وأمر بحفر خندق حول ذلك الحصن، وأمر بإحكام بناء القلعة، ووضع فيها من (500 إلى 1000) رجل حسب حجم كل بلدة ومقدار خراجها، يكون هؤلاء الرجال هم الأمناء على تلك البلدة، ويضع لهم في الحصن ما يكفيهم سنتين أو ثلاثة من المتاع والسلاح والذخيرة.

وضبط الإمام محمد بن سعود مالية الدولة بعدما أعاد تنظيمها، ووضع في كل بلدة قاضياً ومفتياً ومحتسباً وعدداً من العمال لأخذ الزكاة، هذا غير الحكام والأمراء، واشترط عليهم أن يكونوا على توافق دائم وتعاون مستمر في كل الأمور.

كما أقرّ أمراء القبائل في مناصبهم القديمة، وقام بتنصيب غيرهم من إخوتهم أو أبناء عموماتهم في حال بدر منهم عصياناً لأوامر الدولة، وجعل في كل قبيلة قاضياً ومفتياً وإماماً يؤمهم للصلاة في جماعة.

وإن مما يلحظ على ابن غنام وابن بشر تذويبهما لشخصية السلطة الأولى في الدولة المتمثلة في الإمام محمد بن سعود، وذلك من خلال إيرادهما لنصوص فيها إرباك للقارئ تجاه معرفة صاحب القرار السياسي في الدولة، فيجعلان الشيخ محمد بن عبد الوهاب شريكاً للإمام محمد بن سعود في كل شيء يذكرانه: المخاطبات، والقرارات، وعزل الأمراء وتعيينهم، وكذلك المكاتبات الصادرة والواردة، ومن أمثلة ذلك قول ابن غنام: "حتى في الأخبار التي تأتي من عيون الدولة في الخارج يذكرها بهذه الصيغة فيقول: "أتوا إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود فأخبروهما بما حدث".

وهي بلا شك روايات ضعيفة جداً يكذبها الواقع التاريخي الذي أوردته المصادر نفسها والتي ذكرت قيام الإمام محمد بن سعود بتعيين الولاة على البلدان وقيادة الجيش والأمر ببناء المسجد الجامع، وهو أمرٌ عائد إلى عدم استيعاب من نقلت عنه هذه المصادر لمبدأ الشورى الذي عمل به الإمام محمد بن سعود وأبنائه من بعده رحمهم الله جميعاً، ونصت المصادر على أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب منذ بداية قدومه للدرعية وهو منهمك في إعطاء الدروس ودعم جانب التعليم في الدولة، في حين أن هناك مصادر صرّحت بأن الشيخ محمداً تفرغ لذلك وأن القائم بأعمال الدولة هو الإمام محمد بن سعود وابنه الأمير عبدالعزيز.

ولعلنا نستشهد بأول لقاء جمع بين الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب حين اشترط الإمام محمد على الشيخ محمد عدم التدخل في الأمور التي اشترطها الإمام محمد على أهل الدرعية من أنظمة اقتصادية وضرائب.

147

على يديه، وجاد بنفسه وما لديه، ولم يخش لوم اللائمين، ولا كيد الأعداء المحاربين: محمد بن سعود وبنوه ومن ساعدهم على ذلك وذووه، خَلَدَ الله ملكهم مدى الزمان، وأبقاه في صالح عقبهم ما بقي الثقلان، فشمَّر في نصرته الإسلام بالجهاد، وبذل الجِد والجهد والاجتهاد، فقام في عداوته الأصاغر والأكابر، وجرَّوا عليه المدافع والقنابر، فلم يثنِ عزمه ما فعل المبطلون، وجاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون".

توفي الإمام محمد بن سعود ووصف حاله الذي كان عليه كما عبّر عنه جان ريمون (Jean Raymond) بقوله: (كان لدى الإمام محمد بن سعود أحلامٌ كبيرةٌ ومهامٌ جسامٌ كثيرةٌ يريد تنفيذها، لكن يد المنون اختطفته وهو في معمة مشروعاته التوسعية، فخلفه ابنه الأمير عبدالعزيز الذي آل على نفسه تحقيق ما كان يطمح والده إلى تحقيقه).

وقد أشار العثيمين إلى أن منطقة نجد باتت محاطة بالمناطق التي تخضع للقوى السياسية من جميع جهاتها منذ أواخر القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي).

والحقيقة التي ربما لم يلتفت إليها المؤرخون المحليون، هي أن النجاحات التي حققها الإمام عبدالعزيز كانت نواتها الأولى قد تمت زراعتها في عهد الإمام المؤسس محمد بن سعود، فعمل عليها منذ توليه الحكم سنة 1139هـ/1727م حتى وفاته سنة 1179هـ/1765م، فترك دولة قوية والطريق أمام توسعها مفتوحاً، ونستثني من أولئك المؤرخين المحليين حمد بن محمد بن لعبون، الذي أطلق اسم الدولة السعودية على الدرعية وهو ما يدل على نضجه السياسي، حيث استوعب ذلك الحدث السياسي العظيم، وهو حدث انتقال الدرعية من مرحلة المدينة إلى مرحلة المدينة العاصمة للدولة السعودية الأولى.

◀ تأسيسه للدولة وتحليل المسألة:

منذ نشأت مدينة الدرعية التي أسسها جد أسرة آل سعود الأمير مانع المريدي سنة 850هـ/1446م وهي تمتلك مقومات الدولة الحضارية، ولها زعامة سياسية، وفيها نسبة سكان كبيرة، وتتبع لها قرى ومزارع تمكنها من تحقيق الاكتفاء الاقتصادي وتصدير الفائض إلى بلدان نجد المجاورة لها، كما أنها ذات موقع إستراتيجي يقع على وادي حنيفة ومفترق طرق الحج والتجارة. هذه القوة الإستراتيجية والاقتصادية المتمثلة في موقع الدرعية، وكذلك القوة السياسية المتمثلة في الأمير مانع المريدي وأبنائه وأحفاده من بعده، جعلتهم يمارسون نظام الحكم والسيطرة على طرق الحج والتجارة وفرض سيادة النظام والأمن والدفاع عن المدينة، في وقت شهد تسلط غير العرب على الحكم الفعلي للدولة الإسلامية، وتقسمت فيه الإمبراطورية الإسلامية إلى ممالك مستقلة، وأعقب ذلك انهيار الإمبراطورية الإسلامية على يد المغول؛ فكان حلم بناء كيان سياسي في الجزيرة العربية موجوداً لدى الأمير مانع المريدي وأحفاده.

كان الأمير مانع المريدي وأبناءؤه وأحفاده من بعده حريصين على حماية الدرعية والقوافل المارة بها، ولأجل ذلك عقدوا العديد من المعاهدات المتعلقة بتأمين تلك القوافل مع قبائل نجد وأمراء بلدانها.

هذا السلوك الذي انتهجه الأمير مانع المريدي وأبناؤه وأحفاده من بعده كوّن لديهم رصيداً من الخبرات السياسية والإدارية المتراكمة خلال تلك الفترة الطويلة التي امتدت حتى تولي الإمام محمد بن سعود الحكم سنة 1139هـ/1727م، الذي استطاع ترجمة هذه الخبرات والتجارب ونجح في تأسيس الدولة السعودية الأولى خلال تلك السنة.

هناك عدد من المؤلفات والكتابات المتأخرة زمنياً اعتمدت عام 1157هـ/1744م كتاريخ لتأسيس الدولة السعودية الأولى، وهو العام الذي يؤرخ لانتقل الشيخ محمد بن عبد الوهاب من العيينة إلى الدرعية.

ومع يقيننا التام أن قدوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية يعد حدثاً مهماً أسهم مع غيره من الأحداث في تعزيز انتشار نفوذ الدولة السعودية الأولى، فإن المصادر المعاصرة حينما تناولت هذا الموضوع لم تذكر أنها تقصد به بداية لتأسيس الدولة السعودية الأولى.

فنجده أن ابن بشر الذي بدأ تاريخه بعام 1157هـ/1744م والذي قد تكون تلك الدراسات والمؤلفات تأثرت به يعزو السبب في ذلك إلى أنه لا يريد أن يبدأ حوادث كتابه قبل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتمكنها، مع العلم أنه لم يهمل تلك الحوادث التي سبقت عام 1157هـ/1744م بل أوردها على شكل سوابق.

ومن هنا فإن ابن بشر أوضح في مقدمة كتابه أن المقصود هو التاريخ لنصرة الدعوة على ידי الإمام محمد بن سعود وليس قصده تأريخاً لتأسيس الدولة السعودية الأولى، وعلى هذا فإن سنة 1157هـ/1744م ليست تأريخاً لتأسيس الدولة السعودية الأولى، ولا حتى لبداية دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي بدأت قبل ذلك بسنوات، إنما هو تأريخ لبداية نجاح دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في انضوائها تحت كنف دولة سياسية تدعمها وتؤيدها.

ونحاول الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما أهم الأحداث التي زامنت مع حكم الإمام محمد بن سعود؟

قرر أمير الدرعية زيد بن مرخان القيام بحملة على العيينة، فلجأ رئيس العيينة محمد بن حمد بن معمر إلى الحيلة؛ لأنه عرف أنه لن يستطيع صد حملة الدرعية، فأرسل إلى زيد يدعوه للقدوم إلى العيينة ومعه أعيان الدرعية ليمنحهم ما يريدون دون حرب وإراقة دم.

وهذا يدل على تنامي قوة الدرعية وطموحاتها التوسعية في المنطقة.

يقول جون لويس بوركهاردت (JOHN LEWIS BURCKHARDT) متحدثاً عن الأوضاع السياسية في نجد: (كان من الضروري وجود زعيم أعلى، فلقد كانت نجد منقسمة إلى عدد من المناطق والبلدان والقرى الصغيرة المستقلة التي لا رابط بينها، وكانت في حالة حرب مستمرة، ولم يكن فيها قانون معترف به إلا للقوي، سواء كان ذلك في البادية أو كان داخل أسوار البلدان).

نجح الإمام محمد بن سعود في تحقيق الاستقرار الداخلي منذ توليه الحكم سنة 1139هـ/1727م، حيث لم تشهد فترة حكمه أي اضطرابات أمنية، وهناك أمورٌ تم ربطها بتأسيس الدولة السعودية الأولى في المؤلفات الحديثة، لذا يجب الحديث عنها في هذه الدراسة وفق ما سوف يأتي.

◀ **قدوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية:**

يقصد به ذلك اللقاء الذي تم بين الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب في بلدة الدرعية، بعدما خرج الشيخ محمد بن عبد الوهاب من العيينة نتيجة تخلي رئيس العيينة عن دعمه له ونصرته لدعوته.

وقد اتخذ بعض المؤرخين المعاصرين من تاريخ هذا اللقاء بداية لتأسيس الدولة السعودية الأولى على الرغم من أن المصادر التي عاصرت الدولة السعودية الأولى لم تذكر ذلك، بل إنها لم تضبطه بشكل مؤكد، فهذا هو ابن غنام يقول في ذلك: " خرج الشيخ سنة سبع أو ثمان وخمسين ومئة وألف من العينة إلى بلدة الدرعية ".

ومثله الفاخرى الذى قال بأنه فى نهاية سنة 1158هـ/1745م أو بداية سنة 1159هـ/1746م.

إذ لو كان ذلك الحدث بدايةً لتأسيس الدولة السعودية الأولى لكان ضبطه بدقة أكثر على اعتباره أهم حدث تاريخي في منطقة نجد ولصرّحت المصادر بذلك على اعتبار أنه من مكاسب دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

حتى ابن بشر على رغم تأكّيده أنه: "في السنة السابعة والخمسين بعد المئة والألف"، نجده في أول حدث لسنة 1158هـ/1745م يقول: "وهي السنة التي استقر فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب عند محمد بن سعود في بلد الدرعية".

هذا اللقاء تضمن حواراً شفهياً تم بين الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب أيّد فيه الإمام محمد بن سعود الإصلاح الديني وقيام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالدعوة وإلغاء الممارسات البدعية، وهو أشبه بلقاء العيينة الذي تم قبل ذلك بين رئيس العيينة عثمان بن حمد بن معمر والشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتضمن حواراً شفهياً قال فيه الشيخ محمد بن عبد الوهاب لرئيس العيينة: "إني أرجو إن أنت قمت بنصر لا إله إلا الله أن يُظهرك الله وتملك نجداً وأعرابها".

ونجد أن اختلاف المصادر لم يكن فقط في الضبط الدقيق لهذا الحدث، بل هناك اختلاف في تفاصيل أحداث قدوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية وتفاصيل ذلك الحوار الذي دار بين الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولنبداً أولاً بأحداث قدوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية.

فابن غنام المعاصر لقدوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية، وأحد تلاميذ الشيخ محمد المتحمسين لدعوته، تفيد روايته أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قدم إلى الدرعية وجلس فيها، ولم يعلم به الإمام محمد بن سعود إلا بعد مضي يومين !!

وفى ذلك يقول: (إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب نزل حين دخوله الدرعية فى الليلة الأولى

وهو ما يؤكد ما ذهبنا إليه سابقاً، بما لا يدع للشك مجالاً في أن قدوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية كان بدعوة من الإمام محمد بن سعود وليس كما تقول الروايات الأخرى أن ذلك كان دون علم الإمام محمد بن سعود، وإنه من المستحيل أن يخاطر الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالذهاب إلى بلد لا يعرف موقف حاكمه من دعوته، ولا سيما أن تلك الفترة التي انتقل فيها الشيخ كانت محمد كثيرة الوضوح بالنسبة له من حيث معرفة المؤيدين له من المعارضين، وليس من المعقول أن يخرج الشيخ محمد بن عبد الوهاب من العيينة بسبب خطر يهدد حياته ويتجه إلى خطر آخر مجهول لا يعرف مصيره فيه.

◀ الحوار بين الإمام والشيخ:

وتدل الرواية على أن الإمام محمد بن سعود طلب عهداً من الشيخ محمد بن عبد الوهاب أن لا يغادر الدرعية مستقبلاً في حال تلقى الشيخ محمد دعوات من رؤساء بلدان نجد، وفي ذلك دلالة على الرؤية المستقبلية التي يتمتع بها الإمام محمد بن سعود الذي عرف أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب سوف يتلقى عروضاً للرحيل عن الدرعية، وهو ما فعله رئيس العيينة عثمان ابن معمر الذي ما إن سمع بأن الإمام محمد بن سعود قد استضاف الشيخ محمد بن عبد الوهاب

وأعلن نصرته، حتى ركب في عدد من أعيان بلدة العيينة قادمًا إلى الدرعية يطلب من الشيخ محمد العودة معه إلى العيينة، لكن الإمام محمد بن سعود أغلق الباب بالعهد الذي أخذه من الشيخ محمد عند لقائه به.

وقد تضمنت هذه الرواية نصّاً يشابه ما ورد في بيعة العقبة: " أن الدم بالدم والهدم بالهدم "، مما يدل على تأثر ابن بشر وغيره ممن كتبوا عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالطريقة التي ألف فيها كتاب السيرة النبوية، وهو أمرٌ يمكن ملاحظته فيما تم تدوينه من أعمال الشيخ محمد بن عبد الوهاب كالمؤاخاة، وبناء المسجد في الدرعية وفرش حوشه بالحصى، ومكاتبات الأمراء والعلماء، ووصم أعداء الدعوة للشيخ محمد بالسحر والكذب، ومرور الدعوة بالمرحلة السلمية وإعلان الحرب.

وقد شبّه حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب (أمر جده الشيخ محمد بن عبد الوهاب بما جرى لخاتم النبيين ﷺ في مهاجره وأنصاره وكثرة من عاداه وناوأه).

أما ابن غنام فيتحدث عن هذا الحوار قائلاً: (أبدى الإمام محمد بن سعود للشيخ محمد بن عبد الوهاب غاية الإكرام والتبجيل، فأخبره الشيخ محمد بسيرة الرسول ﷺ وأصحابه من بعده رضوان الله عليهم، ثم أخبره بالحال الذي عليه أهل نجد من مخالفات شرعية وبدع وخرافات، فلما تحقق الإمام محمد بن سعود من معرفة التوحيد، وعلم ما فيه من المصالح الدينية والدنيوية، قال الإمام للشيخ: أبشر بالنصر، واشترط عليه أن لا يرحل ويستبدل به غيره، والثانية: أن له قانوناً على أهل الدرعية يأخذه منهم وقت جني الثمار، فقال الشيخ: أما الأولى فابسط يدك: الدم بالدم والهدم بالهدم، وأما الثانية: فاعل الله يعوضك من الغنائم بالفتوحات).

أما صاحب كتاب (لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب) فتحدث عن ذلك في موضعين، قال في الموضع الأول: إن الإمام محمد بن سعود بايع الشيخ محمد بن عبد الوهاب على تقويم الدين، ثم أورد تفاصيل لا نجدها في المصادر المحلية فيقول: " اشترط كل واحد منهما على صاحبه شروطاً وأكد الأمر بالحلف والعهود والمواثيق، واتخذا على ذلك شهوداً فصفا الأمر بينهما باطناً وظاهراً".

وفي الموضوع الثاني قال: إن الإمام محمد بن سعود جاء إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب وصافحه قائلاً له: إن هذه القرية قريتك، والمكان أنت واليه، فلا تخش أعداءك، والله لو انطبقت علينا جميع نجد ما أخرجناك عنا، فأجابه الشيخ محمد: " أنت كبيرهم وشريفهم، أريد منك عهداً على أنك تجاهد في هذا الدين والرئاسة والإمامة فيك وفي ذريتك بعدك، وإن المشيخة والخلافة في الدين فيّ وفي آلي من بعدي، بحيث لا ينعقد أمر ولا يقع صلح ولا حرب إلا ما نراه، فإن قبلت هذا فأخبرك أن الله يطلعك على أمور لم يدركها أحد من عظماء الملوك والسلاطين، وتكون عاقبة أمرك محمودة عند الله لأنك اتبعت الدين ونصرته، ولم تقصر رتبك

عن رتبة الصحابة والخلفاء الذين نصروا رسول الله ﷺ، وأي منزلة أعلى من هذه ؟ فقال محمد بن سعود: قبلت، وبايعتك على ذلك، فتبايعا، واشترط كل منهما على صاحبه ما اشترط عليه ". من المؤكد أن الإمام محمد بن سعود ليس بحاجة إلى من يقدم له مثل هذه العروض، خاصة وأن الرئاسة والإمامة متسلسلة في الدرعية ولها نظام يحفظه منذ أن أسسه جده الأمير مانع المريدي في منتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

والحال التي جاء بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية بحثاً عن النصرة والمؤازرة لا تسمح له أن يشترط على الإمام محمد بن سعود أن يكون شريكاً له في حكم دولة تأسست منذ ثماني عشرة سنة مضت قبل هذا اللقاء، ولها نظام حكم يضرب بجذوره إلى سنة 850هـ/ 1446م، ومن المعلوم أن الحكم يكون متسلسلاً في الذرية، أما الزعامة الدينية فهي للأصلح والأكثر تفقهاً.

كما أن حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب - المعاصر للشيخ محمد- تحدث عن قدوم جده الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الإمام محمد بن سعود وأن الإمام محمد أخذ من الشيخ محمد عهداً أن لا يفادهم إلى غيرهم، ولم يذكر ما ورد أعلاه.

وإن ما ذكره ابن غنام أعلاه من أن الإمام محمد بن سعود (علم ما في ذلك من المصالح الدينية والدينية)، يتوافق مع ما ذكره مانجان حين قال: إن الإمام محمد بن سعود عرف ببصيرته أن ذلك سوف يمكنه من توسيع نفوذ دولته، ولم يكن مخطئاً في ذلك، لقد وضع الإمام محمد بن سعود مخططاته التوسعية لحكومة الدرعية، ولم يأل جهداً في تحقيقها، مشرفاً على ذلك بنفسه، ولذلك فليس من المستغرب أن يكون للإمام محمد بن سعود جيش عظيم، مستعد لأن يصل إلى أبعد مكان في الصحراء وفي وقت قصير جداً.

وهذا يدل على أن لدى الإمام محمد بن سعود هدف هو توسيع رقعة دولته بعدما نجح في الفترة الأولى من حكمه في نقل الدرعية من مرحلة المدينة إلى مرحلة عاصمة الدولة السعودية.

يقول جان ريمون (Jean Raymond) عن حال الإمام محمد بن سعود في بداية توليه الدرعية: (كان على رأس جماعة من النجديين الذين اختاروه رئيساً لهم واتحدوا حوله، فكان أميراً باسلاً وفاتحاً جريئاً، وكانت الدعوة الجديدة مناسبة لدعم طموحه).

وهي نصوص تؤكد لنا أن الدولة السعودية الأولى هي التي دعمت الدعوة الإصلاحية، وليس كما ذهب إليه كثير من المؤلفات التي جعلت الدولة السعودية من ثمار الدعوة الإصلاحية. يقول لوريمر (J.G. LOREMER): إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب جاء إلى مدينة الإمام محمد بن سعود وعاش تحت حمايته.

الخاتمة:

161

الإمام محمد بن سعود من صفات الحكمة والوسطية والاعتدال، التي تجلت في حوارهِ مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومناقشته له في الأفكار التي تبناها، في وقت شهد فيه الشيخ محمد بن عبد الوهاب هجوماً من بعض المتطرفين عليه ومحاولة الشروع في قتله عندما أظهر تلك الأفكار في حريملاء والعيينة قبل قدومه إلى الدرعية، وكان ذلك مشجعاً لطلاب العلم على الهجرة من بلدانهم والقدوم إلى الدرعية التي أصبحت منارة للعلم والمعرفة خلال تلك الفترة.

أنتجت هجرة المردة إلى نجد نموّاً سكانياً فيها، وأسهم في إعادة الاستيطان في بلدانها وظهور بلدان نجدية وأسر نجدية تنافست فيما بينها سياسياً واقتصادياً.

كان سقوط الدولة العباسية وانقسامها إلى ممالك مستقلة داعماً لحلم تأسيس كيان سياسي ودولة مستقلة في جزيرة العرب، وكانت فكرة تأسيس هذه الدولة في الدرعية واضحة في وقت مبكر منذ عهد جد أسرة آل سعود الأمير مانع المريدي، الذي تلقب حفيده إبراهيم بن موسى بأمير نجد، وكان هناك طموح وتنافس بين زعامات البلدان النجدية في سبيل تحقيق ذلك، ونجحت فيه الدرعية التي امتلكت مقومات تكوين الدولة في كسب تلك المنافسة.

هناك مصادر متنوعة عن تاريخ الدولة السعودية الأولى تحوي معلومات تفصيلية دقيقة قد لا نجدها في المصادر المحلية، لذا يجب علينا مراجعة هذه المصادر والتأكد من صحة تحقيقها وترجمتها والاستفادة منها بالشكل الصحيح وفق المنهجية العلمية.

واتضح جلياً الأهمية الكبرى لأحداث الجزيرة العربية، التي وإن كانت أحداثاً داخلية فإنها أثبتت تأثيرها القوي في مسار الأحداث الإقليمية والدولية عبر العصور التاريخية المتنوعة منذ أصبحت الجزيرة العربية موطناً للعرب وحضارتهم، وحينما ظهر فيها نور الإسلام ببعثة نبينا محمد ﷺ فازدادت هذه المكانة رفعةً وأهميةً، حتى جاءت العصور الحديثة وتأسست الدولة السعودية الأولى سنة 1139هـ/1727م، كأول وأقدم كيان سياسي في جزيرة العرب بعدما خرجت العاصمة الإسلامية عنها، هذه الدولة التي تعد نواة لما يعرف اليوم بالمملكة العربية السعودية، مما يدل على العمق التاريخي والإرث الحضاري والثقافي للمملكة العربية السعودية، الذي أسس له خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز أيده الله بعزه وتمكينه من خلال قراءته الواعية لأحداث التاريخ، ونبه له صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان ولي العهد حفظه الله، الذي ضمّن رؤية المملكة 2030م اهتماماً كبيراً بالعمق التاريخي والإرث الحضاري والثقافي للمملكة العربية السعودية، وهذا ما جعلها تنهض بمسؤولياتها التاريخية تجاه الأمتين العربية والإسلامية. وتوصي الدراسة بمراجعة المؤلفات المتعلقة بتاريخ الدولة السعودية الأولى والتي تمت ترجمتها إلى لغات أجنبية اعتماداً على المؤلفات السابقة، والعمل لتصحيحها وإعادة طباعتها ونشرها وفق ما نتج من قراءات جديدة في المدرسة التاريخية السعودية الحديثة.

ثالثاً-المقالات وبحوث الندوات العلمية:

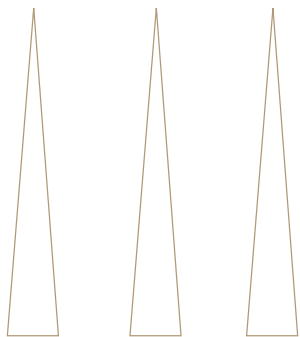
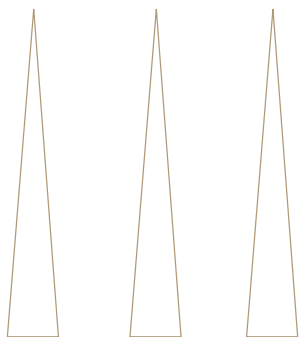
- التركي: عبدالله بن عبدالمحسن (دكتور)، الدولة والدعوة، بحوث مؤتمر المملكة العربية السعودية في مئة عام، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، الرياض، 11-7 شوال 1419هـ الموافق 24-28 يناير 1999م.
- الثقيفي: يوسف بن علي (دكتور)، نشأة الدولة السعودية- التطور التاريخي، بحوث مؤتمر المملكة العربية السعودية في مئة عام، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، الرياض، 11-7 شوال 1419هـ الموافق 24-28 يناير 1999م.
- سباق: عبدالحليم عبدالرحمن، الدولة السعودية والدعوة الإصلاحية، بحوث مؤتمر المملكة العربية السعودية في مئة عام، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، الرياض، 11-7 شوال 1419هـ الموافق 24-28 يناير 1999م.
- الشبل: عبدالله بن يوسف (دكتور)، الدولة الأخيضية، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، عدد (6)، جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، الرياض، 1396هـ/1976م.
- الشريدة: بندر، سمحان حي متكامل في قلب الدرعية التاريخية، جريدة الشرق الأوسط، عدد (12609)، الخميس 26 رجب 1434هـ، 6 يونيو 2013م.
- الشويعر: محمد بن سعد (دكتور)، نشأة الدولة السعودية، بحوث مؤتمر المملكة العربية السعودية في مئة عام، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، الرياض، 11-7 شوال 1419هـ الموافق 24-28 يناير 1999م.
- العجلان: عبدالله بن محمد (دكتور)، الدولة السعودية والدعوة الإصلاحية، بحوث مؤتمر المملكة العربية السعودية في مئة عام، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، الرياض، 11-7 شوال 1419هـ الموافق 24-28 يناير 1999م.

رابعاً- المعرفة:

- بوركهارت: جون لوس، ملاحظات عن البدو والوهابيين، ترجمة الأستاذ الدكتور عبدالله الصالح العثيمين، داره الملك عبدالعزيز، الرياض، 1434هـ.
- ريمون: جان، التذكرة في أصل الوهابيين ودولتهم، ترجمة الدكتور محمد خير البقاعي، تعليق أبي عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري، داره الملك عبدالعزيز، الرياض، 1424هـ.
- فيليبي: ست جون، تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية، ترجمة عمر الديراوي، المكتبة الأهلية، بيروت، (د.ت).
- مانجان: فيلكس، تاريخ الدولة السعودية الأولى ومملات محمد علي على الجزيرة العربية- من كتاب تاريخ مصر في عهد محمد علي عرض الحوادث التاريخية والعسكرية منذ جلاء الفرنسيين حتى عام 1823م، ترجمة الأستاذ الدكتور محمد خير محمود البقاعي، داره الملك عبدالعزيز، الرياض، 1426هـ/2005م.

خامساً-الأحنية:

1. BURCKHARDT. JOHN LEWIS: NOTE ON THE BEDOUINS AND WAHABYS. LONDON. 1831.
2. FELIX MENGIN: HISTOIRE DE L'EGYPTE SOUS LE GOUVERNEMENT DE MOHAMMED- ALY. APARIS CHEZ ARTHUS BERTRAND. LIBRAIRIE. 1823.
3. -LOREMER: GAZETEER OF THE PERSIAN GULF OMAN AND CENTRAL ARABIA. INDIA.1914.





دائرة الملك عبدالعزيز
KING ABDULAZIZ FOUNDATION
FOR RESEARCH AND ARCHIVES

800 124 35 35



@darahfoundation

P.O.Box 2945 - Riyadh 11461
Kingdom of Saudi Arabia
Mail : info@darah.org.sa
www.darah.org.sa

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ
وَبَارِكْ عَلَى
رَسُولِكَ مُحَمَّدٍ
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ